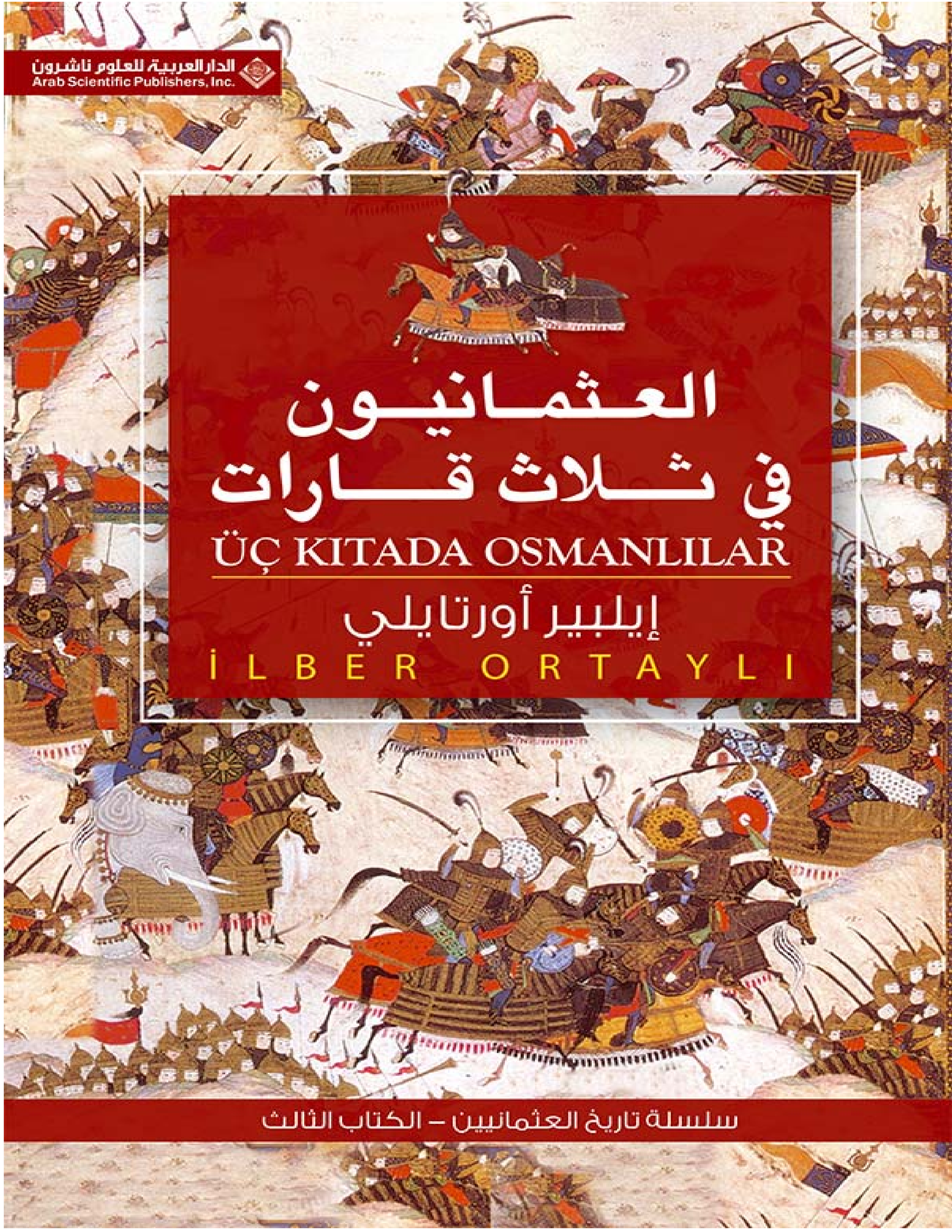


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
العثمانيون في ثلاث قارات
ÜÇ KITADA OSMANLILAR
إيلبير أورتايلي
İLBER ORTAYLI
سلسلة تاريخ العثمانيين – الكتاب الثالث

العثمانيون في ثلاث قارات

ÜÇ KITADA OSMANLILAR

إيلبير أورتايلي

İLBER ORTAYLI

ترجمة

عبد القادر عبد اللي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc.sal



تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج «أضواء على حقوق النشر» في أبوظبي.



This edition has been produced with a subsidy by the Spotlight on Rights programme in Abu Dhabi

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة الإنكليزية عن الأصل التركي
OSMANLILAR KITADA ÜÇ
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع



TEDA by sponsered is Translation
Bakanligi Turizm ve Kultur .T.C
Mudurlugu Genel Yayimlar ve Kutuphaneler
SayıŞtay Eski) No:4 Bulvarı Cumhuriyet Mahallesi PaŞa Fevzi (Binası
Ulus/ANKARA/TURKEY 06030
www.tedaproject.com :Web - teda@kulturturizm.gov.tr :e-mail

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ISBN: 978-614-02-2112-3



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (1-961+) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (1-961+) 786230 - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

مقدمة

هذا الكتاب هو الجزء الثالث من سلسلة إعادة اكتشاف العثمانيين. وهذه السلسلة عبارة عن تجميع للمقالات والمحاضرات التي كنت قد قدّمتها في محور التاريخ العثماني عبر وسائل الاتصال والتواصل المتنوعة؛ إنه نوع من رؤية ذات طابع عام عن العثمانيين.

نشأت الإمبراطورية العثمانية من إقطاعية صغيرة في منطقة بحر مرمرة. لقد تطورت تلك الإقطاعية وازدهرت، ولم يمر قرن ونيف إلا وكانت قد هيمنت على أجزاء كبيرة من البلقان وإيجة؛ وخاصة ما يسمى اليوم بلغاريا واليونان. ولم تمر فترة طويلة قبل أن يمتد نفوذها وهيمنتها إلى البحر الأدرياتيكي وصولاً إلى نهر طونا (الدانوب اليوم)، وشواطئ البحر الأسود، وبلاد الرافدين. ومع حلول القرن الثاني على نشأتها كانت سلطتها تشمل حوض المتوسط باستثناء المناطق الغربية منه. وهنا يمكننا القول إنها كانت بمؤسساتها ومفهوم سلطتها العالمية وجغرافيتها روما الثالثة. ويمكننا وصفها بأنها آخر إمبراطوريات البحر المتوسط الرائعة. وقد لعبت الإمبراطوية العثمانية دورها التاريخي بنقل إرثها الثقافي وإرث المناطق التي كانت تحت سيطرتها إلى العالم المعاصر؛ وبهذا كانت إمبراطورية متوسطية ذات وظيفة تاريخية.

من الصعب فهم تاريخ العثمانين وهويتهم ومعرفتهما من دون فهم تاريخ كل المكونات التي كانت الإمبراطورية العثمانية تتشكل منها، وكذلك فهم هويتها ومعرفتها. وهنا نحن نتحدث عن الحضارات الأكثر رسوخاً في تاريخ البشرية. فكلما عرفنا عما تقدم أكثر، عرفنا عن العثمانية أكثر، وأحببنا أنفسنا وافتخرنا بتاريخنا أكثر، وشعرنا بالدفء تجاه تاريخنا.

تابع القراء كتابيّ السابقين باهتمام. لهذا، كان لا بد من -بل من الواجب- إصدار كتاب يعرض للشكل الإداري الذي كان متبعاً في الإمبراطورية العثمانية، ولنظامها القومي والحقوقي وعلاقاتها الدبلوماسية وغير ذلك. لقد وجدت أنه من الواجب التنطح لمثل هذه المهمة، وقد قمت بذلك مسروراً. ومما لا شك فيه أن ما سأطرحه في هذا الكتاب سيكون موضوعاً للنقاش والانتقاد.

في الختام، لا بد لي من شكر العزيزة نسليهان بنت أنغين أطا تيمور التي قامت بتدوين محاضراتي، وشكر المدقق اللغوي علي بركطاي، والمشرف على العمل آدم قوقشال. أما الشكر الأكبر فلمؤسسة تيماس التي أوصلت

هذه السلسلة للقراء. وكلي أمل أن يلبي هذا الكتاب حاجة منتظريه.

إلبر أورطايلي

أيلول 2007

التاريخ العثماني في التربية

هنالك مشكلة كبيرة تعاني منها المنطقة التي نعيش فيها وأقصد بهذه المنطقة البلقان ودول البحر الأسود والقوقاز، بالإضافة إلى دول الشرق الأوسط. فدول هذه المنطقة لديها مشكلة مشتركة؛ وهي عدم قدرتها على إيصال التاريخ كعلم والمعلومات التاريخية إلى الجماهير. فخارج إطار الكتب المدرسية هناك إحجام لدى الغالبية الساحقة من الناس عن مطالعة الكتب التاريخية.

أمام هذه المعضلة، الحل الوحيد لإيصال معلومات تاريخية صحيحة للجماهير هو الكتب المدرسية. ونظراً لما لهذا الكتاب من أهمية، أمل المثقفون في ستينيات القرن الماضي من العاملين مع المنظمات الدولية أن يتم انتاج كتب مدرسية خالية من العبارات العدائية المتبادلة، وذلك بهدف إضفاء جوٍّ من الصداقة يهدف إلى إحلال السلام بين شعوب المناطق. ونحن مضطرون لاحترام هذا الرأي القيم ولا يمكننا إهماله، إلا أننا يجب أن نعرف التاريخ كما هو وعلى حقيقته.

إن التعاطي مع كتب التاريخ المدرسية في منطقتي البلقان والبحر الأسود يتم من منطلق يعتمد على الغائية؛ فقد كانت دول هاتين المنطقتين مهداً لدول لامعة جداً في الماضي، وذات تاريخ وشأن عظيمين. وقد شهد ذاك التاريخ من المجد انقطاعاً في بعض الأحيان، لذا لا بد من بعث ذلك الماضي المجيد في نفوس الناشئة بأي شكل من الأشكال.

ما تقدم كان هدفاً لا بد منه لدى دول البلقان التي سعت للتخلص من الهيمنة العثمانية في القرن التاسع عشر، وأسست دويلاتها المستقلة. ومما لا شك فيه أن تشكل القومية العدائية التخريبية لدول البلقان نقطة ارتكاز كتب تاريخها. فقد عمدت تلك الكتب إلى إعادة تشكيل الماضي وفقاً لرغباتها، ولم تعمد إلى تقديم أي تنازلات في سبيل الوصول إلى الهدف المتمثل بإحلال جوٍّ من الصداقة في خلال هذه الكتب.

وفي سبيل تحقيق هذه الدول لمآربها، عملت على تغيير أو بالأحرى تحريف المعطيات التاريخية والجغرافية. فلنأخذ الأراضي المقدونية التي تعرف اليوم بالجمهورية المقدونية. أذكر مؤتمراً علمياً عرض فيه مؤرخ أميركي على مدى ساعة من الزمن خريطة تعود للقرون الوسطى تُظهر مقدونيا على أنها جزء من بلغاريا، وأخذ البلغار يزعمون مستندين إلى هذه الخريطة بأن مقدونيا يجب أن تكون جزءاً من بلدهم؛ متجاهلين أن هذه الخريطة

شأنها شأن خرائط القرون الوسطى كانت تتضمن نقصاً تقنياً. أضف إلى ذلك أن تسمياتها القومية في القرون الوسطى تختلف عن تسمياتها اليوم. من هذا المنطلق، لا يمكننا تمييز أوكرانيا عن روسيا في غالبية كتب رحالة القرون الوسطى. وكي لا نذهب بعيداً، ففي كتب رحالة العصور الحديثة لا يميز جيداً بين البلغار والهلينيين.

لذا، يجب علينا إعادة النظر بالادعاءات التي لا سند لها، أو التي يُدّعى وجود سند لها لم يتم تقصي صحته. وهذا يفرض علينا التعامل مع بعض الأحداث التاريخية من منظور جديد. فعلى سبيل المثال، تدعي كتب التاريخ اليونانية أنه تم نفي مليون ونصف هليني من آسيا الوسطى خلال الأيام العشرة أو الخمسة عشر التي تلت النصر التركي في الهجوم الكبير؛ وكأن هذا النفي حدث في 26 آب 1922. لكن الحقيقة هي على العكس من ذلك. فقد حصل اتفاق تبادل بين الأتراك وفينزلوس مما لا شك فيه أن التبادل أمر مقيت، ولكن التوصيف الحقيقي للأمر هو تبادل وليس نفي مليون ونصف شخص وشتان ما بين الأمرين.

يعرض القوميون البلقانيون لتاريخ البلقان الممتد على مدى خمسة قرون ونصف بشكل عابر، باعتبار تلك الفترة كانت تحت الحكم العثماني المفروض والمكروه. وهم يقومون بتحريف اتفاقيات نظام الأرض، والتحول الديني والأسلمة، وهم غالباً ما يستخدمون عبارة نير الاحتلال لوصف تلك الفترة. وهذه العبارة تغضب المؤرخة البلقانية الشابة أولغا زيويفيك التي تتساءل: «وهل نحن ثيران لنستخدم هذه العبارة عندما نتحدث عن فترة مهمة من تاريخنا؟!». وأنا أرى أنها محقة. ففي سعينا لتحقيق الهدف المنشود بإنتاج كتب تحمل على الأمل والصداقة لا يمكننا أن نرى كلمة نير من زاوية حسنة. ونتيجة هذا الشحن القومي، تعرضت الآثار العثمانية إلى تخريب كبير في تلك المنطقة. لست أنا وحدي من يتحدث عن هذا التخريب، فالجميع على علم بالأبحاث التي أجراها المؤرخ الخبير في الشأن العثماني مخائيل كيل، والذي عدد الآثار التي تعرضت للتخريب.

على الرغم من وجود أقسام في الجامعات البلقانية لتدريس اللغة والتاريخ التركيين، إلا أن أياً منها لا يوازي مثيلاته الموجود في الدول الغربية. وهنا لا يجب أن نكون نزّاعين إلى الانتقاد دائماً. فهل يمكننا الحديث عن أقسام لتدريس اللغة والتاريخ السلافي أو البيزنطي في جامعاتنا؟ وكيف يمكننا معرفة الأساس الذي تأسست منه الإمبراطورية العثمانية، وروعة هذا التاريخ وتنوعه من دون وجود هذه الأقسام؟ ومما

لا شك فيه أن الرؤى التي يجلبها التاريخ غير الخاضع للبحث وفقاً للأساليب العلمية تكون دائماً عملاً هاوياً.

مما لا شك فيه أن تأثير أوروبا الغربية السلبي على الكتابات حول التاريخ العثماني ملفتة للنظر. على سبيل المثال، يتحدث المجلس الأوروبي عن تنظيف الكتب المدرسية من الأحكام المسبقة والمعلومات الخاطئة... حتى إن كتب «أوروبا الغربية» التي يشير إليها من يقوم بهذا العمل على أنها نموذج يحتذى به تحتاج إلى تصحيح من الناحية الإيديولوجية، وحتى من ناحية المفاهيم في كثير من الأماكن. في الحقيقة، مهما كانت نيتنا حسنة فلن نستطيع القول إن المشار إليه لا يمكن أن يشكل نموذجاً جيداً مقارنة مع كتب البلقان.

عدا ذلك، من الواضح تماماً أن الموظفين الهواة الذين يعملون في مؤسسات كتلك لا يفهمون المشاكل المتعلقة بمنطقتي القوقاز والبلقان. في أغلب الأحيان تبدو تدخلات بعض المؤسسات الدينية الألمانية التي تتظاهر بالحياد لا تختلف عن أطروحات يسوعيي العصور الوسطى. كيف ستُحل هذه المعضلة؟ من الواضح تماماً أن دارسي منطقة أوروبا الغربية وشمال غرب أوروبا التي لا يزيد تاريخ مساهمتها في تاريخ البشرية عن أكثر من ستة أو سبعة قرون، ومثقفيها لا يمكنهم أن يصدروا أوامر لمؤرخي الشرق الأوسط والبحر المتوسط. فالتمدن الذي جلب غزارة مصطلحاتها باعتبارها إحدى أدوات التاريخ الهامة في دول هذه المنطقة قديم جداً، ويعود إلى آلاف السنين. سجلاته المدونة قديمة جداً ومهمة لفهم هذه المنطقة. في هذه الحال، من الممكن القيام بعمل مشترك بين مؤرخي هذه الدول، وتعلمهم من بعضهم بعضاً، وفهمهم الوضع، وكتابة التاريخ بشكل مشترك. لكن، للأسف لا تسير الأمور على هذا النحو.

بقي مؤرخو الشرق الأوسط العرب البعيدون عن نشاطات كهذه إلى زمن قريب تحت تأثير رياح أوروبا الغربية. لهذا السبب، علينا أن نغيّر بعض المفاهيم. أول تحليل قيم معروف حول التاريخ العثماني جاء بقلم أمير باغدان (مولدافيا) ديمتري كانتيمير في أوائل القرن الثامن عشر الذي يعرف عدداً كبيراً من اللغات، ويلفت النظر بمعلوماته العميقة حول الموسيقى العثمانية، وترأس فريق عمل تركياً وهلينياً في إسطنبول. وكانت مجموعة المثقفين الأتراك في فريقه تضم الأخوة مافروكورداتو، ومحمد أسعد أفندي يانيالي أي قاضي غلاطة أسعد أفندي، وهيزارفين وحتى نيفي أوغلو

يعرفون اللاتينية والرومية واليونانية جيداً، وقد قدمت هذه المجموعة المختلطة أعمالاً جيدة جداً.

للأسف، إن المعلومات التاريخية التي جمعها كانتيمير ودوّنها حول التاريخ العثماني تحولت بعد معركة بروت عام 1711 إلى خدمة مصلحته. (Othomanicae Aulae decrementa atque Incrementa) (تاريخ صعود الإمبراطورية العثمانية وانهيارها) لأنه عقد تحالفاً مع الروس ضد العثمانيين.

من ناحية أخرى، لا شك أنه على الرغم من قِدمه لا يمكن عدم التعريج على العمل الذي قدمه المؤرخ النمساوي الشهير جوزيف هامر فون بورغستال في القرن التاسع عشر، والمشتمل على تحليل للمؤسسات العثمانية حتى تاريخ 1774 معتمداً على «وقائع نامة» على الرغم من انتقاد هذا العمل كثيراً، إلا أننا لم نقدّم أفضل منه. وليس ثمة شك بأن عملاً كتب قبل قرنين تقريباً لن يجيب على بعض التساؤلات، ويتضمن عيوباً من ناحية الأسلوب. ولكننا مع الأسف لم نكتب عملاً بأسلوب أفضل بعد.

ما يجب أن نفعله في موضوع الكتب المدرسية هو أن نعرف الجغرافية جيداً، وأن نشرح لشبابنا أن البلقان والبحر المتوسط كيان ثقافي وهوية... وبعد أن نغرز حب الدول والحضارات التي في هذه الجغرافية والتحبيب بها، يمكننا أن نشرح أهمية الدور الذي لعبته الإمبراطورية العثمانية في التاريخ، ونقله إلى الأجيال القادمة.

تاريخ الإمبراطورية العثمانية هو تاريخ إمبراطورية متوسطية. وهذه الإمبراطورية هي آخر إمبراطوريات المتوسط... هذا يعني أننا لا يمكن أن ننظر للذين كانوا مع الأمة التي أوجدت هذه الإمبراطورية كما ينظر المؤرخون الأوروبيون إلى دول العالم الثالث وآسيا وأفريقيا.

قبل كل شيء، لغالبية الشعوب والمجموعات القومية المتناولة هنا دول وحتى كنائس ومؤسسات دينية مستقلة في التاريخ. مثلاً كانت ثمة قيصريتان في بلغاريا في العصور الوسطى، ويمكن لليونان أن تعتبر نفسها بيزنطية، وأنها خليفتها ومن بقاياها. والأمر ذاته يمكن أن ينسحب على الصرب أيضاً. وللمجر إمبراطورية أيضاً، وللأرناؤوط (ألبانيا) تاريخ مكتوب، وقد خرّجت جميعها إداريين وجنوداً فعالين لهذه الإمبراطوريات... لكن شعوب هذه المنطقة دخلت التدوين منذ القدم، ولديها آدابها...

لهذا السبب، لا يمكن أن تعيش هنا لغة يجلبها الأجانب. ليس ثمة إمبراطورية -وخاصة التركية- محت اللغات الأخرى. أي إنه ليس ثمة قضية هنا كقضية شبه القارة الهندية التي تحتوي على العديد من اللغات

المستخدمة في الدولة والفلسفة والدين، والتي عمل المستعمر الإنكليزي على محيها وإحلال الإنكليزية. إلا أنه وللأسف نجح المستعمر الفرنسي إلى حدٍّ ما في الجزائر في إحلال الفرنسية محل العربية المتفوقة في كثير من الخصائص البنيوية على اللغة الفرنسية، ويعود تاريخها إلى مرحلة أقدم منها. وحتى اليوم، هناك عدد كبير من المثقفين الجزائريين الذين لا يتكلمون العربية جيداً، ولا يكتبونها بشكل خاص. لا يمكننا الحديث عن أمر مشابه تحت الحكم العثماني. فالحكم العثماني لم يعرّض تاريخ شعوب البلقان والشرق الأوسط للانقطاع. لا يمكن أن تُفقد الهيمنة الثقافية إذا عاشت بعض العناصر المؤسسة لها -خاصة إذا نجحت اللغة بأن تتحول إلى بنية مؤسساتية- كما لا يمكن لنا أن نتحدث عن تقطع أو انقطاع أو فقدان للذاكرة في التاريخ. وهنا ينبغي رؤية هذا العامل في تطور تاريخ الدول والأمم.

لقد قدم نيكولا جورغا مؤرخ رومانيا الكبير المولود في القرن التاسع عشر عدداً كبيراً من الأعمال قبل قتله على يد أنصار رئيس الحكومة الفاشي أنتونيسكو الذين يُدْعَون «الفيالق الحديدية» قبيل الحرب العالمية الثانية. ووصل عدد مقالاته إلى اثني عشر ألفاً. لقد استخدم مراجع جيدة جداً في كتابه «التاريخ العثماني» الواقع في خمسة مجلدات على الرغم من عدم معرفته اللغة التركية، وقد ذكر: «لولا الهيمنة العثمانية لما بقيت الرومانية، ولضاعت وسط البحر السلافي، واختفت. لولا الهيمنة العثمانية، لا شك أنها كانت ستُصرّب... لولا الهيمنة العثمانية، لكانت هناك جغرافية مختلفة تماماً في البلقان...».

لعل هذه الحماية هي سبب استمرار التنوع والتوتر في البلقان. تم تأجيل هذه الأزمة في فترة المعسكر الاشتراكي بعد الحرب العالمية الثانية. ولكن، تبين أنه لم يكن هناك انسجام في يوغسلافيا كما كان يُعتقد في عهد تيتو، وظهر هذا من خلال الانفجار والتقسيم المفاجئ. لهذا السبب فإن هذا يُعد تأجيلاً للأزمة. هذا التأجيل نتيجة للهيمنة العثمانية على البلقان قرابة خمسة قرون. ولهذا السبب أيضاً عندما نكتب التاريخ العثماني في البلقان يجب أن نرى هذه الحقيقة، وأن نبحث فيها.

إذا لم نرسّخ الدراسات البلقانية في جامعاتنا على المستوى الأكاديمي، فإننا من غير الممكن أن نواجه ردود الفعل والاحتجاجات القادمة من البلقان بواسطة المعلومات التي نكتبها في كتب التاريخ المدرسية.

السلطان محمد الفاتح وحملة أوترانتو

من بين الفتوحات التي تمت في عهد السلطان محمد الفاتح، تعتبر أوترانتو المكان الذي بقي بيد العثمانيين أقصر فترة. بقيت الدول التي فُتحت كلها ضمن الإمبراطورية العثمانية حتى القرن التاسع عشر، حتى إن قسماً من وطننا اليوم فتح في تلك الفترة.

دخلت خانية (سلطنة) القرم والبوسنة السياسة التركية بوصفهما عنصرين جغرافيين وثقافيين يشكلان جزأين مهمين من المحيط الثقافي العثماني (Kulturkreis). لم تدخل قضية فتح أوترانتو المقولات السياسية التركية كثيراً. ومع الأسف، إن الوضع نفسه ينسحب على التأريخ أيضاً.

على الرغم من وجود دفاتر سجلات الأراضي وقيود لبعض أوقاف الدول التي فتحت في القرن الخامس عشر مثل الأرناؤوط، إلاّ أنّه ليس ثمة قيود لدفاتر المهمات والديوان السلطاني لهذه المنطقة. الأمر الغريب أن مدونات وقائع التسلسل الزمني العثماني لا تتناول السنوات المائة والأربعين التي سبقت منتصف القرن الخامس عشر. كل مدونات الوقائع التاريخية التي نتابعها حول تأسيس الإمبراطورية، ونموها تعود إلى القرن الخامس عشر. ويمكن أن تكون هناك إعادة كتابة للتاريخ من منطلق أيديولوجي توسعي (imperial). النقطة الأكثر غرابة هي أن معركة أوترانتو في عام 1480 لم تُكتب إلا في القرن السادس عشر بقلم مؤرخين مثل كمال باشا زادة وآخرين. هذا يعني أنه لا مفر من طَرْقِ المصادر الإيطالية المعاصرة للقرن الخامس عشر في آخر حرب عادلة (post bellum)، ومدونات وقائع التسلسل التاريخي العثمانية من أجل قضية فتح أوترانتو. حتى إن المؤرخ العالمي فرانتز بابينجر لا يبدو أنه حلّ التناقضات باستخدام المصادر المشتركة. في هذه الحال، يواجه الخبراء العثمانيون والمؤرخون الإيطاليون مهمة صعبة في هذا الموضوع.

تأسست سلطنة محمد الثاني بوصفها إمبراطوريةً مركزيةً ودولةً بُنيت فيها الهوية الوطنية والقومية المعاصرة. اكتملت في ذلك العهد بنية القصر التنظيمية. أمر سلطان السلاطين الشاب البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً بإعدام صدره الأعظم بعد فتح إسطنبول مباشرة. إعدام خليل باشا تشانداري كان أول إعدام لصدر أعظم. ازدياد النفقات العسكرية وتوزيع المخصصات دفعا إلى تأميم الكثير من الأماكن. ونفي الكثير من شعب الأناضول إلى البلقان. لا شك أن مؤرخي اليوم يحبون السلطان محمد

الفاتح أكثر من معاصريه بسبب هذه الأحداث. عُين رؤساء للطوائف الروحية غير المسلمة بعد فتح إسطنبول، وأوجدت بطريركية أرمينية في الإمبراطورية. نُهجت سياسة روما؛ وهي تنسجم مع العادات الإمبراطورية التركية والإسلامية القديمة. في الواقع، إن الأتراك منذ القرن الحادي عشر يسمون دولتهم الجديدة الروم (روما)، ويسمون أنفسهم روميين، واتخذ السلطان محمد الفاتح لنفسه لقب قيصر الروم. تمت مركزة إدارة الريف، ورُبطت بسلطان السلاطين. كما تمت الحيلولة دون تدخل جماعة القصر. ونرى من خلال ملاحظات قوتشو بيك في القرن السابع عشر أن هذا النظام يذكّر باعتباره نظاماً مطلوباً. كانت سلطة سلطان السلاطين مطلقة. وشرّعت عملية قتل الإخوة في هذا العصر. المهم أن بنية السلطة وجدت هذا الأمر ضرورياً. يقول الرحالة الألماني الذي جاب الدول العثمانية بعد قرن: «مثلما ثمة شمس في السماء، ثمة حاكم لدى العثمانيين».



هجوم تركي بعين الرسامين الغربيين

كانت جهة فتوحات السلطان محمد الفاتح هي أوروبا، ومن دون شك، كان الهدف روما الإيطالية. هذا واضح إلى درجة أنه لا يقبل الجدل. كان محمد الفاتح مثقفاً، ويحمل خصوصية عصر النهضة؛ حيث يصعب إيجاد مثيل له في زمنه. يُعرف عنه أنه درس تاريخ العالم والإسكندر الكبير. يثني على لغته اليونانية العديد من الكتاب؛ مثل كريتوفولوس ولانغوشي.

كان يكتب شعراً بالفارسية، ويعرف العربية.

في الجدل التاريخي والسياسي التركي، يُعتبر حصارُ فيينا الأول والثاني ذروة التقدم إلى قلب أوروبا. لا يتناول الناس ذكر الأجداد الذين تقدموا إلى البصرة ومصر أو أوترانتو كثيراً في الجدل السياسي. مع أنه من الواضح أن أوترانتو تتخذ مكاناً مهماً في الذاكرة التاريخية الأوروبية. لم يتناول المؤرخون الأتراك كثيراً المعاهدات الهامة في دراسة مستقلة كما تم التعامل مع كثير من الحروب الهامة. أوترانتو أيضاً هكذا. لا تُذكر السيطرة على أوترانتو لمدة ثلاثة عشر شهراً سوى كموضوع يرد في سياق تاريخنا العام. وهناك فروق في التناول ضمن سياق التاريخ العام حسب المؤرخ. يتحدث إسماعيل حقي أوزون تشارشيلي عن تكليف السلطان محمد الفاتح للأميرال الكبير، أي قبطان البحار أحمد باشا غديك بفتح أوترانتو. لهذا السبب، عُين بداية والياً لأوترانتو. كأن أحمد باشا غديك عوقب بإجباره على الخروج في هذه الحملة لأنه عارض حملة الأرناؤوط. ويسمي أوزون تشارشيلي الولاية التي يخرج إليها الباشا: «بوليو...».

ويُفهم من هذا الأمر أن عميد التأريخ العثماني الدقيق لا يتعامل بالوثائق، ولم يجد ضرورة لمراجعة الخرائط الإيطالية بشكل معقول، ولم يقرأ المصادر التي ستجري بينها مقارنات. بالمقابل، يتناول المؤرخ الجماهيري يلماظ أوزطونا حملة أوترانتو برؤية غريبة. حسب رأيه، إن إرسال السلطان محمد الفاتح أميراله الكبير إلى روما، ووطأه بوغاليا كان بهدف إثبات أنه إمبراطور روما. فقد عقدت هدنة مع أقوى دولة في شبه الجزيرة الإيطالية والعالم وهي جمهورية البندقية، وبموجبها تترك لها المقاطعات الشمالية على شواطئ الأدرياتيك ودالماسيا. من الواضح أنه أراد السير نحو بوغاليا ونابولي وروما. وبعد «نيا روما»، كان سيسير إلى روما ليضمها إلى سلطته.

وحسب مؤرخ القرن السادس عشر إدريس بيتليسي، فإن أحمد باشا غديك شجّع على احتلال جزر أيا مافري (سانتا ماورا)، وكفلونيا، وزانتا في بحر إيونيا عام 1479. وفي ذلك العام، لم يدفع الأمير ليوناردو ابن أسرة توكو النبيلة للحكومة العثمانية المبالغ المفروضة عليه بشكل منتظم من جهة، وتزوج ابنة ملك نابولي فرديناند دون أخذ رأي القصر العثماني من جهة أخرى. وبهذا الزواج، أصبح قريباً لملك المجر ماتيوس؛ مما أوجد سبباً مشروعاً للاحتلال. وبأخذ هذه الجزر الثلاث، تم تأمين ولاية بوغاليا.

ثمة حقيقة لافتة للنظر في هذه النقطة، وهي أن هناك تسرّعاً بالسيطرة على إيطاليا. تم تكليف مسيح باشا بحصار رودوس قاعدة

الفرسان الروديسيين، والجزيرة الأكثر أهمية من الناحية الاستراتيجية في البحر المتوسط، وبالتوازي مع هذا أُرسل أحمد باشا غديك لفتح إيطاليا. نعرف أن رودوس لم تفتح، وقد تم هذا الفتح في عصر القانوني. يجب أن يكون فتح إيطاليا مبكراً جداً مع إقامة فرسان مالطة قرب الأناضول، وعدم ضم جزيرة مالطة التي تعتبر مركزهم إلى الإمبراطورية، وعدم دخول صقلية تحت النفوذ التركي. مع أن قبرص التي تعتبر قاعدة عسكرية للبندقيين فُتحت في القرن السادس عشر، وكريت في القرن السابع عشر. بسط القرصان الكرواتي أسكوكلار نفوذه على شواطئ دالماسيا، وامتد تأثير البندقيين على الشواطئ كلها. كانت بلغراد بيد المجريين في ذلك التاريخ، ولا يُعد شمال إيطاليا مكاناً آمناً. إرسال السلطان محمد الفاتح أحمد باشا غديك على عجل إلى جنوب إيطاليا كان من الناحية العسكرية مقدمة لفتح إيطاليا الكبرى، ومن الناحية السياسية إعلاناً لطموح إمبراطورية روما.

عدد القوات التي نزل بها أحمد باشا غديك إلى أوترانتو موضوع جدل. رقم مائة ألف مبالغ فيه. لم تكن إمكانيات الإمداد بالنسبة إلى العصر، وإمكانيات ولاية بوغاليا نفسها تساعد على تغذية وحدات فتح كبيرة إلى تلك الدرجة. بكل الأحوال، وطأ الباشا إيطاليا في أواخر تموز دون مجابهة مقاومة كبيرة. وفي 11 آب 1480 أخذ قلعة أوترانتو، ويبدو أن الهيمنة العثمانية بدأت حينها على جنوب إيطاليا.

حسب المؤرخ الجماهيري مصطفى الجزار، أمر السلطان محمد الفاتح قبل موته أحمد أفرانوس أوغلو بأن يرسل طلائعَ إلى قلاع البندقيين في مورة (بيلوبونيز). من المحتمل أنه بعد مقدمة أوترانتو، كان ينوي أن يبدأ الإبداع العظيم بفتح إيطاليا، وشن حملة على البندقية. لماذا انتقل سلطان السلاطين إلى الأناضول؟ تسممه في سهل غبزة وموته تركا الكثير من الأسئلة دون إجابات. هل كان سيتوجه هذه المرة إلى المماليك أم إلى الإيطاليين؟ بكل الأحوال، بقي الدخول إلى إيطاليا محاولة فتح لم تكتمل. فُهم من حادثة بيازيد الثاني والسلطان جم أن السيطرة على إيطاليا قد انتهت.



السلطان محمد الفاتح وخريطة لإيطاليا في مطلع القرن السادس عشر

وُدِّعت إيطاليا في 10 أيلول 1481، وكانت نهاية ثلاثة عشر شهراً من الهيمنة دمويةً جداً. كان هذا الفتح أقصر فتوحات الفاتح؛ وفتوحات العثمانيين كلها. الفتح القصير الثاني كان فتح صحراء تشيهرين في أوكرانيا، وتركها في القرن السابع عشر. بقيت فتوحات الفاتح عموماً حتى القرن التاسع عشر، وتعتبر أوترانتو استثناء.

كيف تناول المؤرخون الأتراك فتح أوترانتو، وكيف حلّلوه؟ فتح إيطاليا محاولة لإعادة تأسيس إمبراطورية روما، وينبغي تناول الفاتح من هذه الزاوية. تم التخلي عن أوترانتو بسرعة لأن خلفه بيازيد الثاني لم يرغب بلقب كذاك عموماً.

لم يقف أحد عند الجوانب التقنية واللوجستية لهذه المعركة الطويلة في تدويننا التاريخي (historiography). كان السلطان محمد الفاتح يريد أن يأخذ إيطاليا مثلما أرادها جيوستنيانوس من قبل. ولكن إيطاليا وأوروبا لم تعودا كما كانتا في عصر جيوستنيانوس. على الأقل، لم تكتمل التحضيرات من أجل فتح إيطاليا. وهذا يشمل مرحلة شبه جزيرة مورة، وشواطئ دالماسيا وصربيا والبندقية.

موت سلطان السلاطين المبكر يصعّب تحديد سياسته. بقدر ما هو فهم داهية كالسلطان محمد الفاتح صعب، بقدر ما يجعل عدم تدقيقنا

الكافي بالمراجع مهمة مستحيلة.

غدت أوترانتو أداة لدى الكنيسة والمسيحيين لتوليد أدبيات دعاية مضادة للأتراك المتقدمين. الغريب أن هذه الأدبيات أثرت على التأريخ العلمي. لم يخضع التاريخ الإيطالي بعد لعملية تنقية منهجية في هذا الموضوع. الشيء اللازم للتأريخ المتأني هو أرشيف وتجهيز لغوي... ويجب اتباع أسلوب القاعدة الذهبية التي تقول: « audi alteram partem /استمع للطرف الآخر».

العثمانيون في ثلاث قارات عهد السلطان سليمان القانوني

كلنا نعلم أن القرن السادس عشر هو نقطة الذروة بالنسبة إلى الإمبراطورية العثمانية، ونقبل بهذا. وهذا يتزامن مع عصر السلطان سليمان القانوني. وقد أيقن العثمانيون عندما كان السلطان سليمان القانوني على قيد الحياة بأنهم في ذروة قوتهم ومجدهم. ويتحدث المؤرخون الرسميون أمثال مصطفى علي غليبولولي عن القرن السادس عشر كله - أي عهود ابنه سليم الثاني، وحفيده مراد الثالث، وابن حفيده محمد الثالث - باعتباره عصر السلطان سليمان القانوني «عصر سليمان خان».

وهم على وشك إطلاق اسم «عصر السعادة» عليه. في الحقيقة، لن نقول إن حدود الإمبراطورية العثمانية وصلت حقيقة إلى ما يمكن أن تصل إليه، ولكنها أثبتت أنها أصبحت قوة عالمية. ومما لا شك فيه أن الحاكم المؤسس الحقيقي للإمبراطورية العثمانية، والذي أشعر بوجود هذه الإمبراطورية مقابل الجغرافية الأوروبية وثقلها هو محمد الثاني؛ أي السلطان محمد الفاتح خان.

وقد أنهى إمبراطورية روما؛ حتى لو كانت إسطنبول قد انحدرت إلى مستوى الدولة المدينة. ولكن بكل الأحوال، إن هذا الماريشال البالغ من العمر إحدى وعشرين سنة سيطر على هذه المدينة التي تصعب السيطرة عليها جداً مستخدماً أحدث تقنيات العصر العسكرية، وعلى أراضي إفلاك - باغدان التي تسمى اليوم رومانيا مولدافيا، واليونان كلها تقريباً، وجزيرتي أيريبوظ وليمني (لم يستطع السيطرة عليها أثناء حصار رودوس) من جزر إيجة، والأرناؤوط (ألبانيا)، وقسمٍ مهم جداً من صربيا (لم يبق منها سوى بلغراد ومحيطها)، والبوسنة والهرسك. ومن جهة أخرى، ضم ولاية قرامان من أراضي الأناضول إلى ولاياته، وأنهى حكم حسن أوزون - أي دولة الخروف الأبيض - في حرب أوطلوقبلي، وفي النهاية سيطر على قلاع إمبراطورية بونتوس الرومية في طرابظون، وألحق خانية القرم التي كانت تشكل حالة تخريبية داخلية في الدولة العثمانية بموجب معاهدة، وربط جزءاً مهماً من هذه الخانية - أي القسم الذي يضم صوداق وكفة - بالمركز باسم سنجق كفة.

لا شك أن عصر السلطان محمد الفاتح هو تحوّل الإمبراطورية

العثمانية إلى دولة عالمية في الشرق والغرب. وشكلت دول العالم قوى داخل القوى العظمى تنتهج سياسة تنافس ورعاية مصالح، وتراقب بعضها بعضاً.

ضمت بغداد - أي العراق اليوم - إلى هذه المنظومة في عصر السلطان سليمان القانوني، وكان والده السلطان سليم الجبار قد ضم سورية وفلسطين ولبنان ومصر إلى أراضي دولته؛ وبهذا سيطر على منطقة الرافدين التي تحمل صفة الإمبراطورية العالمية وصفات إمبراطورية روما في تلك المنطقة. ونقف عند هذا الأمر باهتمام لأن الإمبراطوريتين الروميتين السابقتين للعثمانيين في التاريخ لم تتمكنا من السيطرة على منطقة الرافدين. واضطرت روما الأولى أن تحارب البارثيين، وروما الثانية المسماة بيزنطة أن تحارب الساسانيين، وإذا كانت قد تمكنت من السيطرة على أعلى منطقة الرافدين، فإنها لم تستطع السيطرة على جنوبها؛ أي عراق اليوم (عراق اليوم كيان مصطنع أوجد في القرن العشرين). وكما نعلم جميعاً، إن هذه المنطقة بقيت تحت سيطرة الإمبراطورية الإيرانية بدءاً من الأخمينيين، وفي فترة من حكم البارثيين، ثم في فترة حكم الساسانيين المعاصرين للروم.

بعد دولتي روما، كان العثمانيون أي روما الثالثة أول من سيطروا على منطقة الرافدين بحملة «العراقين»، وامتدت سيطرتهم حتى البصرة. كانت تلك الحملة الكبرى للسلطان سليمان القانوني في الشرق تثبت أنه ماريشال جيد. من جهة أخرى، أمنت هذه الحملة حدودنا مع إيران، ولكن الأهم هنا هو فتح المجر.

ما المجر؟ إنها المنطقة التي تشمل سلوفاكيا، والقسم المسمى ترانسلفانيا من رومانيا (تسمى في المجر إردل، وتستخدم التسمية نفسها في تركيا)، وصربيا اليوم (لأن بلغراد كانت تحت سيطرتها يومئذ)، والقسم المسمى بورغنلاند من نمسا اليوم في أوروبا الوسطى، إضافة إلى مجر اليوم. ويمكننا أن نضيف جزءاً صغيراً من أوكرانيا أيضاً وذلك لفترة محدودة، وتوسعت في عهد الملك ماتياس (كورفينوس) حتى حدود البندقية في نهاية القرن الخامس عشر، كما يمكننا أن نضع في الحسبان أنها سيطرت على فيينا في فترة من الفترات.

هناك ما هو أكثر؛ ففي عهد الملك سيغسموند مُنح تاج الإمبراطورية الألمانية للمجر. لهذا السبب، المجر دولة قوية تمسك بتاج بولونيا وليتوانيا؛ وتاج المجر، وتاج الإمبراطورية الألمانية. المجر مسؤولة عن رعايا أوروبا الوسطى كلها. تمتد هذه السيطرة إلى البلقان. بقيت الإمبراطورية العثمانية تحارب المجر منذ القرن الخامس عشر في البلقان. منذ زمن الحاج إلبيك،

وبعد ما نسميها معركة جبل صربيا، توحدت الدول الصليبية الأخرى تحت قيادة هونايدي يانوش أهم ماريشالات الحرب في التاريخ المجري، ونزل إلى البلقان كما نعلم. لولا دفاع مراد الثاني العبقري، والنصر في حرب فارنا عام 1442 لما كان اقتلاع العثمانيين من البلقان منذ ذلك الوقت أمراً صعباً. بعض التوسعات وعمليات السيطرة تأتي نتيجة الضرورات الجغرافية الاستراتيجية للتطور الاقتصادي. وكأمثلة على هذا، توسع ألمانيا نحو بولونيا في العصور الوسطى، وتوسع روسيا؛ أي دولة موسكو نحو سيبيريا. ويتجلى هذا الأمر أيضاً بسيطرة الإسبان على أكثر من نصف الكرة الأرضية. ولكن بعض أنواع السيطرة تحددها الحرب بشكل مباشر. إذ إن نجاح قائد الجيش في تلك الحروب، وتكتيك الجيوش يجلبان بعدهما سيطرة تدوم سنين طويلة.

تعتبر حرب فارنا 1444، وحربا كوسوفا الأولى والثانية، وحرب ساحة موهاج عام 1526 من هذه النماذج في التاريخ العثماني. هُزم الملك لايوش حامل تاج بولونيا وليتوانيا والمجر في موهاج عام 1526. ومساء ذلك اليوم، ترنح التاريخ الأوروبي بزلزال. فجأة، أزيلت مملكة المجر القوية. أما ورثة هذا التاج آل هابسبورغ فكانوا بالانتظار. فجأة، صارت الإمبراطورية العثمانية - أي الإمبراطورية التركية - تقيم في إقليم الدانوب. لم يكن هذا الاستيطان وتلك السيطرة استيطاناً وسيطرة مؤقتين لخمسة أعوام أو عشرة أو خمسة عشر أو خمسين عاماً، بل استمرّا مائة وثمانين عاماً. هذا يعني أن الأتراك يدخلون التاريخ الأوروبي بشكل مهم جداً. تقع مملكة المجر المقدسة التي تعد انعكاساً للكنيسة الرومية، وأهم الممالك الكاثوليكية فجأة بيد الأتراك، ويدير آل هابسبورغ في النمسا الذين يُعدّون الورثة القانونيين لها جزءاً صغيراً منها. وهذه هي برسبورغ أو براتسلافيا المجر، أو كما نسميها اليوم الأرض السلوفاكية. ولكن حتى هذه ستتعرض بعد القانوني لحملات عديدة، ولعدد من الفتوحات، وستتمسك بسيطرتها بصعوبة بالغة مع خروج بعض القلاع من يدها.

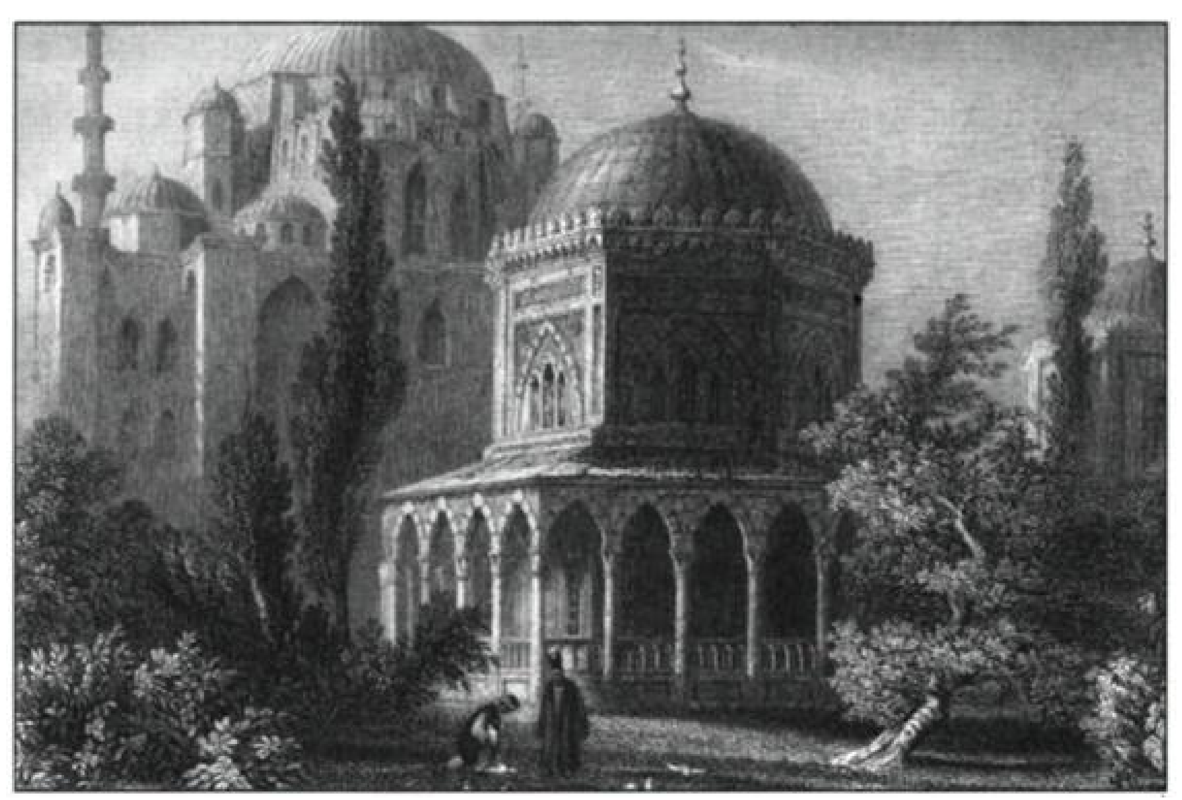
من هم آل هابسبورغ؟

آل هابسبورغ أسرة مالكة نمساوية كانت تحكم جزءاً صغيراً من نمسا اليوم في القرن الثالث عشر. ونتيجة الحرب بين الملك أوتوكار روميسيل وردولف هابسبورغ سقطت بيدها بوهيميا، أي تشيكيا.

ومع الزمن، أخذ آل هابسبورغ تاج الإمبراطورية الألمانية التي تسمى كونفيدرالية الدول الألمانية. ويُرى بعد هذا تطورٌ غريب جداً. بداية، أصبح

آل هابسبورغ النمساويون ورثة دولة غنية مثل بورغونديا عن طريق الزواج. بورغونديا هي منطقة ديجون الفرنسية اليوم، ولكن الأهم هو أنها دوقية غنية تضم بلجيكا وفلاندرة. نتيجة زواج ماكسيمليان الأول من ماريا (دي بورغوغنة) كسبت النمسا تلك الأراضي. أما ابنه فيليبه الوسيم ففعل ما هو أفضل من هذا، وغدا وارث إسبانيا.

في تلك الأثناء، كان المسلمون يتقهقرون في إسبانيا. تزوجت ملكة كاستيا إيزابيلا من ملك أراغون فرديناندو، وتوحدا، ووحدا إسبانيا. بطرد آخر المسلمين من غرناطة عام 1492، وبعدهم اليهود ظهرت إسبانيا الكاثوليكية. وفي العام نفسه، اكتشف كولمبوس القارة الأمريكية، ورُبطت بإسبانيا. وعندها، تزوجت ابنتهما الأميرة المدعوة جوانا المجنونة فيليب من آل هابسبورغ. وسُمي هذا «عرس إسباني». توسعت النمسا بالعرس الإسباني بعد العرس البروغوندي. وإذا فكرتم أن ماكسيمليان قد تُوج بتاج الإمبراطورية الألمانية، ولم نعد نستطيع استخدام اسم الإمبراطورية النمساوية كما يرد في كتب التاريخ، فهذا خطأ فادح، يجب أن نتحدث هنا عن الإمبراطورية الألمانية. أي إن الدولة التي حاربناها طوال التاريخ هي في الحقيقة الإمبراطورية الألمانية، وليست الإمبراطورية النمساوية. لأن الإمبراطورية النمساوية لم تظهر حتى بداية القرن التاسع عشر بتفتيت نابليون للإمبراطورية الألمانية، وإطلاقه لقب الإمبراطورية على النمسا، وقبوله هذا الاسم. نحن لم نحارب الإمبراطورية النمساوية، وهذا أمر غريب جداً. نحن والنمسا كنا حليفين فقط في الحرب العالمية الأولى. وكان هذا التحالف باهظ الثمن؛ لأن أحد أجنحتنا العسكرية اضطر للدفاع عن غاليتشيا في الأراضي النمساوية ضد روسيا بسبب عدم تأسيس نظام دفاع عسكري ناجح.



قبر السلطانة حُرّم زوجة السلطان سليمان القانوني/وليم هنري بارتلت

بظهور آل هابسبورغ حكاماً لأوروبا وسيطرتهم على إسبانيا من جهة، وأرضي ألمانيا والنمسا من جهة أخرى. لم يكن لهم منافس حقيقي سوى العثمانيين، وهؤلاء كانوا منافسين خطيرين جداً. فقد كانوا يضغطون على الحدود من جهة، ويسيطرون على المجر التي تعتبر حقهم القانوني من جهة أخرى، والأهم من هذا، كانوا يقفون إلى جانب الإمارات البروتستانتية المتمردة على الحكم الكاثوليكي في ألمانيا. غدَت الإمبراطورية العثمانية حامية البروتستانت. وبالطبع، في هذا الوضع لدى العثمانيين حليف. من؟ فرنسا. لم يكن أمام فرنسا سوى التحالف مع الأتراك وهي تحت الضغط الكاثوليكي الألماني والإسباني؛ على الرغم من كونها كاثوليكية.

ثمة دولة ولدت حديثاً في ذلك الحين؛ وهي دولة كبرى اضطرت للاقتراب من الإمبراطورية العثمانية في عصر القانوني، وتحديداً في عهد مراد الثالث. أي دولة؟ إنكلترا. في الحقيقة، إن ملكة إنكلترا القوية، الملكة المؤسسة إليزابيث الأولى وجدت حليفها ضد إسبانيا. وهكذا أقيمت علاقات دبلوماسية مع إنكلترا.

والآن، انظروا إلى الغرابة الناشئة. حليفانا أو الدولتان المقربتان منا هما فرنسا وإنكلترا، ويقف ضدنا آل هابسبورغ في ألمانيا وإسبانيا. بعد فترة، قسمّ فرديناند وشقيقه الأكبر شارلكان (كارل الخامس) هذه

الإمبراطورية. أخذ شارلكان اسم الملك كارلوس، وأصبح ملكاً على إسبانيا ومستعمراتها. أما فرديناند فبقي له تاج النمسا والإمبراطورية الألمانية بجوارها. مقابل هذا، هناك طرف آخر ضدنا: إيران المسلمة. سيبقى هذا الأمر هكذا دائماً. وحتى أيام حصار فيينا الثاني كانت السويد حليفة العثمانيين، وإيران حليفة الأوروبيين.

هناك دولة أخرى هي روسيا. ولم تكن المرحلة قد تجاوزت التواصل، التواصل الدبلوماسي، ولم يكن بيننا صراع حقيقي. وكان هذا التواصل يعني تتبع شؤون الصراع في خانية القرم. كان إيفان الرهيب (إيفان الرابع) في موسكو روسيا معاصراً للسلطان سليمان القانوني، ويعيث خراباً بروسيا. كان هناك نظام قاسٍ، وأُسِّس في روسيا نظام إقطاعي حقيقي. تُرسخ العبودية الزراعية من خلال أعمال السخرة، وتبتلع أجزاء مثل أستراخان وقاظان من آلطن يورد المتفتتة. وكانت خانية سيبير بيد روسيا أصلاً، وستكون القطعة الأخيرة خانية القرم، لم تُيسر الأمور هناك، ودخلت خانية القرم تحت الإدارة العثمانية.



جامع السليمانية

كانت خانية القرم، ومقاطعة إردل من رومانيا اليوم المنفصلة عن المجر، ومقاطعتا إفلاك وباغدان، ومصر بتبعية حكامها للعثمانيين مناطقَ ذات امتياز. لم تكن هذه الولايات كالولايات الأخرى، بل كانت لها إدارات

خاصة. حتى إن إفلاك وباغدان والقرم وإردل كانت توفد سفراء إلى الدول، وتقبل سفراء. وكما هو معروف، إنّ هذا الجزء من المجر استمر بالاستقلالية الثقافية المجرية، والاستقلالية السياسية، ولم تكن مقاطعة إردل مجرد مقاطعة تابعة للعثمانيين، بل كانت مقاطعة ذات امتياز، وتلفت الأنظار بأنها حافظت على استمرارية الاستقلالية المجرية مدة قرنين.

انفتحت حليفتنا فرنسا على البحر المتوسط، ولكن لم يكن من الممكن أن ينفتح النمساويون والألمان على البحر المتوسط. مقابلنا إسبانيا، وصراعنا مع إسبانيا كان بسبب الجزائر المرتبطة بنا. كان يدير الجزائر، أي المنطقة التي تسمى المغرب العربي، أو مغرب الشمال الأفريقي بحارة وإنكشاريون ومقاتلو بحرية نشأوا في الأناضول. وعلى رأسهم خير الدين باشا بربروس، وبفضل هذا بقيت منطقة شمال أفريقيا بيدنا. كانت تلك القوة البحرية تقابل منطقة سيد سادة المقاطعات، ومنطقة ذات امتياز، واستطاعت أن تقارع إسبانيا، حتى تقهقرها. لهذا السبب، أُنقذت شمال أفريقيا من الوقوع بيد إسبانيا.

كان ذلك التوازن غريباً جداً، وحافظت الإمبراطورية العثمانية على توازنات المتوسط والبلقان وشرق أوروبا ضمن حدودها التي تأسست في عصر السلطان سليمان القانوني من ضفاف الدانوب حتى الفرات، ومن سهول أوكرانيا إلى شمال أفريقيا ومقاطعة الحبشة، (وهذه هي الصومال أكثر من كونها الحبشة اليوم) مدة قرنين، أي حتى نهاية القرن السابع عشر. وقد سيطرت على ثلاث قارات. ومما لا شك فيه أن ذلك التوازن هو الذي يحدد تاريخ اليوم، ونحن مضطرون لدراسة تاريخنا بدءاً من ذلك اليوم.

العثمانيون وعالم البحر المتوسط

ولدت الإمبراطورية العثمانية باعتبارها إقطاعية صغيرة في منطقة بحر مرمرة، وكبرت. ولكن، ما إن مر قرن ونيف على سنواتها الأولى تلك حتى فرضت هيمنتها في البلقان وإيجة، وشملت سلطتها في البلقان المنطقة التي تسمى اليوم بلغاريا واليونان بالكامل. بعد فترة قصيرة، امتدت نحو منطقة بحر الأدرياتيك، ونهر طونا (الدانوب)، وشواطئ البحر الأسود، ومنطقة الرافدين. في قرنها الثاني، غدت إمبراطورية لفت سواحل البحر المتوسط عدا الغربية منها، وضمت شمال أفريقيا. أي إنها بتعبير آخر، كانت روما الثالثة بمؤسساتها وحياتها ومفهوم سلطتها العالمية وجغرافيتها.

كانت الإمبراطورية العثمانية آخر إمبراطوريات المنطقة الرائعة المؤسسة في عالم البحر المتوسط، وهي دولة احتضنت ثقافاته كلها مع إرثه، ونقلتها إلى العالم المعاصر، وكانت هذه وظيفتها التاريخية: إمبراطورية متوسطية.

ما هو عالم البحر المتوسط؟ لا شك أن البحر المتوسط قبل كل شيء بيئة ثقافية في تاريخ العالم والإنسانية. وهناك بيئات ثقافية أخرى في العالم، كبيئتي العالم الهندي والعالم الصيني. غدت الصين بكتابتها وتقاليدها نموذجاً في منطقتها. ولكن، لا شك أن رابطها مع العالم مقطوع. وبفضل علاقاتها التجارية المحدودة تمكنت من المساهمة بحريريها؛ وفي ما بعد ببارودها وورقها بأسلوب ذرائعي في التاريخ الإنساني. ولكن، لا يمكن القول إن الصين لها مساهمة كبيرة في المغامرة البشرية عبر اللغة الصينية وكتابتها وفكرها. فهي بيئة ثقافية مختلفة، وتصرفت بمحدودية كبيرة بروابطها مع بقية أجزاء العالم. ولا نعرف ما سيحدث بعد الآن.

الهند أيضاً مهمة على صعيد فكرها؛ لأنها قدمت للإنسانية الصفر في العلاقات الرياضية على الأقل، وعلّمته. ولكن المحيط الهندي العظيم الذي يحيط بها، والجبال في شمالها حددت علاقتها مع العالم الخارجي. ولكن، على الرغم من هذا، من الممكن أن نجد بعض الملامح الهيلينية اليونانية أثناء حملة الإسكندر، ومساهمة بالرياضيات الهندية وفكرها ولغتها عن طريق إيران وبلاد الرافدين.

لا شك أن عالم الشرق الأوسط - أي بلاد الرافدين ومصر وإيران والأناضول - يشكل مهد الحضارة المعاصرة التي أنشئت فيها أولى المدن قبل المسيح بخمسة آلاف سنة. وبما أن إنشاء المدن الأولى يعتمد على فائض الإنتاج الزراعي، فهذا يعني أن ظهور المهن يرتبط بالزراعة. وهذا

يعني أنه من هنا بدأت الزراعة التي تقابل ما يسمى ثورة وثقافة، أي ثورة العصر الحجري الحديث « Neolithic » وثقافته في التاريخ العالمي. استيطان الإنسانية هذا، واستخدام الأرض والطبيعة بشكل معطاء، جعلا حضارة الشرق الأوسط في وادي النيل ومنطقة الرافدين تبدع الروائع.

وهكذا وصلت الإنسانية إلى صفحة المدينة والدولة. الأمر الغريب جداً هو أن اللغات حول البحر المتوسط في غاية التضاد. لكل من اللغات السامية، واللغات الأوروبية فروع مختلفة تماماً، وكتبت بأبجديات بالغة الاختلاف. والتلون في موضوع الأبجدية فقط خلال ألفي عام من تاريخ الشرق الأوسط لا يمكن مقارنته مع أي تلون آخر. مع أن المنطق يقول إن هذه الأبجديات خرجت من بعضها بعضاً. أي يُرى أن اللاتينية تقترن باليونانية، واليونانية بالفينيقية، والفينيقية ببعض اللغات السامية من ناحية الصوتيات والنظام اللفظي للأبجدية؛ أي اعتمادها على نظام إشارات يعتمد على الهجاء.

الأغرب في الأمر هو أن آدابَ هذه اللغات التي ليست ثمة علاقة بينها تتشابه كثيراً. ليس بين السومرية التي تعتبر أقدم لغات الأدب في منطقة الرافدين واللغات السامية الأخرى التي أتت بعدها أية قرابة. هذه اللغة ليست معروفة لعلماء الآثار واللغات المعاصرين فقط، بل كان ساميو ذلك الزمن يعرفونها، كما يعرفها الأكاديون والبابليون أيضاً. كان نسخ النصوص السومرية، وحفظها في المكتبات من أول أعمال تلك الحضارات.

وجدت اليوم في حفريات سلطان تبة في محافظة أورفة الواقعة جنوب شرق الأناضول نصوص جلجامش بالسومرية. كان الأكاديون ينقبون في المدن السومرية، وينسخون النصوص الأدبية المسمارية التي يجدونها ويحفظونها. الأمر نفسه ينسحب على قوم آري (هندو أوروبي) وهم الحثيون. وغدت الكتابة المسمارية لغة السومريين؛ وهي لغة متجذرة قومياً، ولغة الساميين في الوقت نفسه. استخدم الآشوريون والبابليون والآراميون والحثيون هذه الكتابة؛ أي الكتابة المسمارية... واستخدمت إيران - الفرع الهندو أوروبي المختلف تماماً - هذه الكتابة أيضاً. هذا يعني أن منطقة البحر المتوسط ومحيطها استخدمت الكتابة نفسها لفترة تزيد عن ألفي عام.

أخيراً، انتقلت الثقافة المصرية وعقيدتها، ومفهومها للإله، وآلهتها، وأساطيرها إلى ثقافات أخرى. إضافة إلى هذا التناول، تبادل سكان منطقة المتوسط في ما بينهم المؤسسات. هناك آثار مصرية تعود إلى ما بين عامي 2000-1500 ق.م في منطقة إيجة. كانت التجارة حيوية جداً. هل هي آثار

مصرية فقط؟ هناك آثار معابد تتعلق بالدين المصري وثقافته. وهناك تأثير كبير للدين القومي لليهود على الديانات التوحيدية التي أتت من بعدهم. وهناك جمع حتى بين المتناقضات. والمشاكل هي نفسها في العقيدة الأساسية. ولا يبقى الأمر عند هذا الحد. يتعرف سكان هذه المنطقة على بعضهم بعضاً في وقت مبكر جداً.

يُعتقد أن عالم الترجمة بدأ مع عصر النهضة، وهذا خطأ فادح... الترجمة قائمة في بلاد الرافدين ومصر منذ زمن طويل. وتشير إلى هذا ترجمة أسطورة جلجامش، وأسطورة الخلق، وبعض القصص المصرية، وترجمات كثيرة للتوراة نفسها. الشرق الأوسط ديار الترجمة. لا يقتصر هذا على الفترة الممتدة ما بين 3000-2000 ق.م فقط، بل يُعد نقل الأدب اليوناني والسرياني إلى العربية خلال فترة بدأت في العصر الهيليني واستمرت حتى وقت قريب من الميلاد، ثم نقله من العربية إلى العبرية واللاتينية أكبر حركة ترجمة في العالم قد تحققت في الشرق الأوسط.

لهذا السبب، هناك تشابه كبير. حتى إنه يصل أحياناً إلى درجة التطابق في حياة أقوام منطقة البحر المتوسط، وعقائدهم، وقواعدهم اللغوية، وأبجدياتهم. وهناك مظاهر مدهشة جداً في هذا التطابق. لم تتحول روما إلى إمبراطورية إلا بعد أن سيطر يوليوس قيصر على مصر. وما يمكن قوله هنا هو أن إبداع المصريين لدقائق إدارة الدولة، والنظام المالي وخاصة النظام الضريبي نُقل إلى روما، وأبدعت روما نظاماً مالياً حقيقياً، وبعد ذلك غدت إمبراطورية حقيقية.



إسطنبول من برج بيازيد (جامع السليمانية في المقدمة)/وليم هنري بارتلت

تعيش أقوام منطقة البحر المتوسط على نتاج بعضها بعضاً. غذّت حبوب مصر وأرزها إمبراطورية روما وبيزنطة والعثمانيين. وفي ما بعد، غذّت حيوانات دوبروجا وخرافها وعجولها المتنوعة إسطنبول. هذا يعني أن هناك تقارباً كهذا. وكانت سورية دائماً مصدرَ الأشياء الفاخرة. كما أثّرت أخشاب الأرز اللبنانية على صناعة السفن في البحر المتوسط كله. ولهذا، إنّ التداخل الاقتصادي هذا وحّد البنى الفلسفية والعقائد حتى لو دخلت تلك الأديان حال صدام أحياناً.

وقد برز انعكاس هذا في ثقافة الأندلس بين القرنين الثامن والثالث عشر. فقد توحد المسلمون واليهود والمسيحيون المحليون هناك حول لغة واحدة هي العربية، وفلسفة مشتركة، وتمكنوا من تقديم حضارة مشتركة؛ وتسمى عصر النهضة الأندلسي، ولا شك أن هذا العصر قد انتهى في القرن الخامس عشر بالسيطرة الكاثوليكية. يسأل قاضي الأندلس الشهير أحمد الأندلسي عن الأقوام التي شكلت تلك الحضارة، ويجيب بأنهم اليونانيون، والعبرانيون، والإيرانيون، والروم، والعرب، والهنود، ويضيف أنه لم تكن هناك مساهمة كبيرة للصينيين والأتراك في تلك الحضارة. ولكنه يعتبر أن هناك أشخاصاً ساهموا بشكل ذرائعي وعلمي بدرجة ما. وهم لم يساهموا بهذه الحضارة بسبب وقوع جغرافيتهم خارج هذه البيئة. إذا فكرتم بظروف

العصر، فستجدون هذا صحيحاً، ولكن هناك أمراً غريباً. كان يحكى عن حضارة مشتركة للبحر المتوسط منذ ذلك العصر.

ويورد مؤرخ فترة الهان الشهير رشيد الدين هذه الأمور في كتابه «جامع التواريخ» الذي أورد فيه تاريخ العالم. وقرأ ابن خلدون الذي يعتبره كثيرون أب التاريخ والتاريخ الاجتماعي وحفيده في الوقت نفسه، وقرأ تاريخ الأمم كلها، وتعلمها تحت تأثير منطق هذه الدولة وثقافتها. لم يقرأ تاريخ العرب فقط، بل تاريخ الروم والأتراك، وحتى مؤلفات يهود عصر روما مثل المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس الذي لم يكن يعرفه حتى حاخامات اليهود. «مقدمة» ابن خلدون عمل كلاسيكي يحافظ على نضارته، ولكن عمله «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» لا يقل عنه أهمية حول التاريخ العام.

نفت إسبانيا بعد عام 1492 اليهود والعرب - أي السكان المنتجين والمفيدين - أو قتلتهم. وهؤلاء لجأوا بغالبيتهم إلى الدولة العثمانية. وهللت إسطنبول وسيلانيك ومدينة روملي النائية كاستوريا، وجزر البحر المتوسط فرحاً بهم. ولعدم إنتاج إسبانيا بضاعة على الرغم من الذهب الذي نهبته من أمريكا دخلت التاريخ باعتبارها أول دولة تستسلم لوحش التضخم.



الباب الأول لقصر طوب قابِ

يشكل الأتراك الصفحة الأخيرة من حضارة البحر المتوسط. ما أنجز هو إعادة الوحدة مع الشرق. هذا ما حدث بعد العصرين الأموي والعباسي؛ وخاصة بعد حملة السلطان سليم الجبار إلى مصر. خُفِّضَ تأثير الجمهوريات الإيطالية في هذه المنطقة. كانت تلك بداية مزلزلة بالنسبة لإيطاليا، ولكن شرق المتوسط دخل من جديد بيئة تعيد له التوحد، واستمر الأمر على هذا النحو حتى القرن الثامن عشر؛ أي عند تأسيس الحضارة الصناعية في الغرب، وفرض نفوذه على البحر المتوسط بقوة البخار التي اكتشفها.

تراجعت منطقة البحر المتوسط في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفقدت أهم العلاقات الموحدة في العالم. ماذا سيحدث اليوم؟ من الصعب جداً تحديد هذا. انهيار منطقة البحر المتوسط أبطأ الإمبراطورية العثمانية. هذا هو دورها في التاريخ. أي إن تأسيس هذه الإمبراطورية، وسيطرتها على شمال أفريقيا وشرق المتوسط أبطأا تأخر منطقة البحر المتوسط. لا نعرف ما ستفعله منطقة البحر المتوسط من الآن فصاعداً بعد أن بعثت مجدداً اعتباراً من القرن التاسع عشر، وحاولت الاندماج مع العالم. ينخفض عدد سكان شمال البحر، بينما يستمر عدد سكان جنوبه بالازدياد، وتظهر صراعات وتوترات واختلافات. تظهر جثة العثمانيين في كل مكان. في الواقع، إن حملة نابليون على مصر قهقرت السيطرة العثمانية على حوض المتوسط تدريجياً، وبدأت آثار هذا الأمر التخريبية الراسخة تفرض نفسها.

يُعّد تأسيس الإمبراطورية العثمانية قد تمّ بين عامي 1300-1304. بالطبع لا يمكن تحديد تاريخ لتأسيس هذه الدولة كوثيقة مصدقة من الكاتب بالعدل. أسست خلال السنوات الخمسين الأولى في حوض مرمرة وتراكيا. وهنا يمكن الحديث عن وحدة اقتصادية لمنطقة مرمرة. وبعد فتح أدرنة، توسعت على جغرافية امتدت إلى شرق صربيا، وجنوب بلغاريا، ومقدونيا، وما يُسمى اليوم شمال اليونان. وفي فترة ما بعد بدايات عام 1400 قويت سيطرتها على هذه المنطقة.

ولكن «محمد» الثاني هو الحاكم الأكثر امتلاكاً لذهنية عالمية، وقد اتخذ من نموذج الإمبراطورية الرومانية مثلاً يحتذى في التاريخ العثماني، ووصلت إدارة الإمبراطورية العثمانية في عهده إلى هذه البنية. وبفتح قبرص وكريت في القرن السابع عشر أُكملت السيطرة على البحر المتوسط تقريباً. مهما قيل في هذا الأمر، لم تكن الإمبراطورية العثمانية في عصر السلطان سليمان القانوني وحدها في البحر المتوسط، بل كانت تتقاسمه مع آل هابسبورغ في إسبانيا الغرب. ولكنها كانت قوة مسيطرة في عالم البحر

المتوسط، ويلاحظ أنها خلال القرنين أو القرنين ونصف القرن اكتسبت الإمبراطورية صفة المتوسطية. لم يكن العثمانيون يحملون خصائص الغرب فقط مقارنة مع الدول التركية مثل آلطن يوردو في شمال شرق الأناضول أو إمبراطورية تيمور في وسط آسيا، بل كانوا يظهرون على الأغلب خصوصيات عالم البحر المتوسط، وإمبراطورية متوسطية. وهذا أحد أهم الخطوط التي تشكل تاريخنا، وتاريخ تركيا أو المجتمع التركي اليوم.

عصر المعماري سنان في الإمبراطورية العثمانية

يَعْتَبِر المؤرخون عهد السلطان سليمان القانوني العهد الألمع في الإمبراطورية، ويصفون نظام هذا العهد الاجتماعي ومؤسساته عموماً بالفترة الكلاسيكية. بسبب هذا التوجه العام، يُعتبر أن تطور المؤسسات الاجتماعية العثمانية حتى نهاية القرن الخامس عشر قد وصل إلى مرحلة النضج، وتعتبر المرحلة اللاحقة مرحلة تفسخ وانحلال. مما لا شك فيه أنه إذا كان قد بدأ التخلي عن تفسير الحياة الاجتماعية والإدارية في الإمبراطورية العثمانية في السنوات الأخيرة على هذا النحو، فإن العمارة العثمانية وتنظيمها العمراني في القرن السادس عشر بشكل خاص ما زالا يعتبران العصر الأكثر إبداعاً وأصالة.

عند تناول الفن التركي أو فن تركيا، لا شك أن هذا التقييم يولّد نقاشاً. وعلى الرغم مما يجلبه هذا النقاش، إنّ الحقيقة التي لا بد من قبولها هي أن مرحلة المعماريّ سنان ذات أهمية كبرى على صعيد العمارة العثمانية والعالمية في الوقت نفسه. ومن الواضح أنه لن يتم التوصل إلى فهم كافٍ لهذه الظاهرة دون التدقيق في الظروف الاقتصادية والثقافية والاجتماعية لهذه المرحلة.

عندما عُين المعماري سنان كبيراً للمعماريين، أو أثناء تقدمه في مهنته قبل أن يصل إلى هذا الموقع، كانت الإمبراطورية قد غدت إمبراطورية شرق أوسطية إلى جانب كونها إمبراطورية بلقانية. حتى إن خصوصية البلقانية التي اكتسبتها وحافظت عليها على مدى قرنين بدأت بالذوبان داخل الخصوصية الأخرى. بدأ العثمانيون بالتحول عن وعي من إمبراطورية بلقانية اكتسبت خصوصيتها عبر سيرورة تاريخية وعلاقات ثقافية طبيعية على مدى قرنين من الزمن إلى نموذج إمبراطورية شرق أوسطية - إسلامية. كان علماء الدولة وأمراؤها يسعون عبر جهود واضحة إلى نهج سياسة تسعى لتوليد نوع من نهضة شرق أوسطية - إسلامية. لا يمكن القول إن أدبيات «الوقائع نامة/سجل الأحداث» و«النصائح نامة/سجل النصائح» العثمانية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر قد أخذت مقتطفات من مصادر الدول الإسلامية القديمة، وأخلاق المجتمع الإسلامي، ونظام الأرض والمالية الإسلامي. كانت ثمة قراءة وتناول ذرائعي للتقاليد الحية ومعايير الدولة الشرقية سابقاً، إنما الآن حل تناول لنموذج شرق أوسطي - إسلامي بشكل أكثر وعياً.

كانت حدودُ الدولة تُبين بمفهوم العثمانية العالمية (Globus

Ottomanorum). تبدأ الدول العثمانية من ترانسليفانيا والمجر، وتمتد على طول حوض الدانوب وصولاً إلى البحر الأسود؛ وإلى شواطئ دالماسيا في الجنوب، وجزر المتوسط وبيلوبونس - مورة. حدودها الشمالية من بودوليا إلى شبه جزيرة القرم عبوراً بإفلاك - باغدان، ووصولاً إلى سهول أوكرانيا. وتتشكل هذه المساحة الواسعة من مقاطعات ذات امتيازات، ودول محمية، وولايات تابعة إلى المركز بنظام تحصيل الخراج إضافة إلى قسم روملي. تبدأ الحدود شرقاً عند أذربيجان ولرستان، وصولاً إلى القوقاز الجنوبية وبعض الدويلات المرتبطة بالقوقاز الشمالية، وشبه القارة الأناضولية كلها الخاضعة لنظام جباية الخراج، والجزائر وسورية وجنوب الرافدين. وإذا أدخلنا شبه الجزيرة العربية، وأرض الحجاز التي تدخل نظام المقاطعة ذات الامتياز، نكون قد حددنا ملكية الإمبراطورية في آسيا. أما في أفريقيا، فهناك مصر وقسم من الحبشة وطرابلس الغرب التي تسمى «مآوي الغرب» إضافة إلى الدويلات المرتبطة كتونس والجزائر؛ وهكذا نكون قد أكملنا التشكيل.

لا يُرى تنوعٌ مثل تنوع السكان الذين يعيشون على هذه المساحة لغوياً ودينياً وعرقياً إلا في ندرة من إمبراطوريات التاريخ. لم تكن الدولة العثمانية التقليدية «كومنولث بريطاني». كانت دول الإمبراطورية وشعوبها تستمر بوجودها بألوانها. لا بد من تبيان أن هذه الوحدات لا تتمتع بانسجام مالي وإداري. فكل طائفة دينية تعيش من أجل نفسها، وفي داخلها. إضافة إلى التلون الشرعي بتطبيق كل طائفة قوانينها؛ هناك قوانين أرض وأعراف مختلفة لكل ولاية. كانت طائفة الروم الأرثوذكس تطبّق قوانين الفترة الأخيرة من بيزنطة.

كانت الإمبراطورية كبيرة، ولكنها لم تكن غنية كسائر إمبراطوريات العصر الجديد كما يبدو. الأصح أن مصادر الغنى في الإمبراطورية، والطبقات المستفيدة من هذا الغنى، وطريقة استخدام هذا الغنى، وانعكاسه على الحياة اليومية مختلفة جداً عمّا كانت عليه الإمبراطوريات المعاصرة. ازداد تجار أوروبا غنى في ذلك العالم، وحصلوا على إدارة المدن، وأقرضوا خزينة الإمبراطور الخاوية نتيجة الإفلاس، وأثروا على إدارة الدولة. أسلوب الحياة، ونظام المدينة، والذوق الفني، والعمارة؛ كلها كانت تناسب ذوق البرجوازية الصاعدة. قصور التجار ومباني البلديات كانت أجمل أبنية المدن. وكانت طرق التجارة وعمارة النُـزل على الطرقات والمستودعات تتطور. يقول الأب شويغر الألماني من شويبان القادم من أوروبا المتحولة إلى البرجوازية في القرن السادس عشر إلى الدولة العثمانية: «الأتراك مثل كل المتدينين

المنافقين يُنشئون معابدهم كبيرة وجميلة ومزركشة، ولا يهتمون بالبيوت التي يسكنون فيها نهائياً على عكس ما نفعل نحن».

لم يكن أي من التجار أو أصحاب المهن العثمانية في وضع يمكنه من التأثير على مستوى استهلاك الإمبراطورية، وثقافتها، وأسلوب حياتها. كان دخلُ سيد السنجق في بدايات القرن السادس عشر 12000 ذهبية، ووُجدَت في تَرِكَة أغنى تجار بورصة 4000 ذهبية. لم يظهر الغنى والحياة البرّاقة في الإمبراطورية العظمى كما في المجتمع الأوروبي. يقول ساومون شويغر الذي ذكرناه: «كانت بيوت الباشاوات والسادة سيئة جداً. ليس ثمة فخامة في الأبنية، والقانون لا يسمح ببناء بيوت مترفة وقصور، وحتى إن البيت السيئ يكلف 1000 ذهبية. مثله لا يساوي لدينا أكثر من ثلاثمائة غولدر».

في هذا المجتمع، يحدد ارتفاع البيت والمساحة التي يتم إنشاؤه عليها بقوانين صارمة. لا يعمل المهندسون المعماريون ببناء البيوت المترفة والحدائق والنـزل الخاصة. كبير المعماريين مكلف بقمع تراخيص إنشاء البيوت بارتفاعات أكثر أو مساحة أوسع، وبإصدار أوامر بهدم البيوت التي تُنشأ أوسع من الترخيص الممنوح بقليل...

حسنٌ، أما كان المعماريون يعملون بغير مهمة الضبط؟ أو هل يحدد نشاطهم بهذا الأمر فقط؟ لا بالتأكيد. كان المعماري العثماني مكلفاً بإنشاء نصب ومنشآت عامة، وتفرض عليه هذه المهمة أن يُقيّم نشاطه، وشخصيته الفنية، وتعليمه من زاوية مختلفة تماماً.

العمارة الاجتماعية التقليدية ليست فعالية محفل بسيطة. المعماري من الناحية الهيكلية التنظيمية الوظيفية بيروقراطي خبير، وعضو في طبقة الإداريين. من المهام التي يتولاها المعماري تحديد منشآت البنية التحتية للمدينة، ومستوى تقنية المواصلات، وتنظيم المكان المعتمد على الفعاليات الاقتصادية، وتحديد لوازم البناء وعدد العمال والمهنيين، وتوزيعهم حسب المناطق، وتحديد الأمكنة التي تسكن فيها جماعات الأقليات، ومراقبة الأبنية المختلفة في تلك المناطق. المعماري في الهيكلية العثمانية الكلاسيكية لقب عسكري. ينشأ المعماري في الثكنة العسكرية (الجيش النظامي). ويسمى «المعماري الخاص»، ويسمى قائدهم كبير المعماريين الخاص.



جامع السليمانية/يوجين فلادرين

كانت مهمة المعماري في حملات الإمبراطورية العثمانية من الدانوب إلى الفرات، ومن أوكرانيا وإلى صحراء أفريقيا في عصر القانوني إصلاح الطرق وسواقي جر المياه، أو إنشاءها، وبناء الجسور، وتفتيش أمكنة الإقامة. لم يتمكن أحد من معرفة مهنة البناء وفنونها عن قرب في القارات الثلاث بقدر ما سنحت الفرصة للمعماري في تلك الفترة. كانت مهمته مراقبة إعمار المدن. في النهاية، ستكون النصب التي تزيّن المدن من نتاجه. ينتمي المهنيون الذين يساعدون المعماري من حجارين ونجارين وزجّاجين ودهانين إلى أديان وقوميات مختلفة أبدعت ثقافة المدن عبر خمسة آلاف سنة في الشرق الأوسط والبلقان.

أثناء بناء الأثر العظيم جامع السليمانية في عصر القانوني، رُفع ذلك البناء بزخم برج بابل الذي يضج بالألوان. لأن كبير المعماريين سنان آغا استطاع مثل كل زملائه جلب معلمي بناء من كل المجموعات في أربع أرجاء الإمبراطورية. ليس أصحاب الخبرة فقط، بل اللوازم أيضاً.

من الطبيعي أن ينشأ سنان في وسط كذاك الوسط، ويؤسس مدرسة فنية كتلك. فهو إنكشاري، ومكان ولادته مجهول، وكذلك عائلته. ويقال إنه مسيحي أو تركي من منطقة قبادوقيا (قيصري)، أو بلغاري من منطقة رودوب. من غير الممكن تحديد هذا الأمر بشكل أكيد من الوثائق التي

بين أيدينا، وهذا ليس مهماً.

سنان الكبير معماري عثماني. و«العمارة العثمانية» عمارة إمبراطورية. وهذه الإمبراطورية إمبراطورية شرق أوسطية وبلقانية. وعلى الرغم من أن هناك شبيهين لها في التاريخ، فهي على خط متوازٍ مع عمارة روما وبيزنطة، فقد أبدعت أعمالاً رائعة في عالم العصر الحديث. والثقافة المهيمنة عليها ليست أناضولية كما أنها ليست رومية. تقوم تلك العمارة بدور إظهار عظمة المجتمع وإدارة الدولة أكثر من تنظيم حياة الإنسان اليومية.

لا جدوى من البحث عن مصدر - وخصوصية - قومية ضيقة في العمارة العثمانية. ومثلما يشبه التاريخ العثماني جداراً بناه قدرُ الناس والدول في القارات الثلاث، فإن العمارة العثمانية رمز مشترك للزمان والمكان في هذا التاريخ.

تابع طلابُ المعماري سنان اتباع أسلوبه في القرن السابع عشر أيضاً، ثم ذاب؛ لأن العالم العثماني في القرن الثامن عشر لم يعد واسعاً وملوناً كما كان في القرن السادس عشر. لم يكن معماري القرن الثامن عشر يعرف عالماً واسعاً كما كان زملاؤه في بيوت الإنكشارية قبل قرن أو قرنين. لم يعد الإداريون والفنانون والشعب يشعرون بحاجة لعمارة إمبراطورية، بل صاروا يحتاجون لعمارة تلبي ضرورات العصر. عصر النهضة البلقاني في القرن الثامن عشر، وعصر الباروك العثماني في إسطنبول إشارة على ولادة نموذج معماري جديد لعصر جديد.

الإدارة في الإمبراطورية العثمانية

نحن نتحدث عن إمبراطورية بسطت هيمنتها على ثلاث قارات. ولكن مع الأسف، لا أحد يتناول طريقة إدارة الإمبراطورية، وكيف تتشكّل هذه الإدارة، وموروثاتها من الإمبراطوريات السابقة. تقدّم كتب التاريخ المدرسية نظام الولايات في فصل التاريخ العثماني بشكل كثير التقطيع دون أن يرتبط بسياق أو يُفسر بشكل جيد.

لا بد من القول إن المركزية الإدارية العثمانية، أي نظام الولايات في إدارة الأطراف يعتمد على نظام ولايات قوي ككل الإمبراطوريات الكبرى في التاريخ مثل روما وإيران الساسانية، حتى إن ولايات الأناضول استمرار لولايات روما القديمة، وبحدودها إلى حد ما. ليس ثمة ما يُدهش في هذا؛ لأن الظروف الجغرافية المعيّنة، تفرض قضايا معينة. وليس من العقلانية تغييرها دون سبب؛ لأن هذا يعقد الأمر. يعتبر تشكيل مدينة جديدة مغامرة. حققت المدن القديمة انسجاماً بجوها وطبيعتها وجغرافيتها عبر

تاريخ طويل، وحافظت على علاقاتها التجارية من جهة، وضبطت مسافات مصادر غذائها، ومصادرها الزراعية، ومنابع مياهها من جهة أخرى. بناء على هذا، إن محاولة تغيير هذا كله يجب أن تكون تصرفاً طائشاً؛ حتى في عالم اليوم وليس ضمن صعوبات العصور الوسطى فقط.

ولكن هناك بعض المدن التي أُسست في أناضول تركيا السلجوقية والعثمانية. مثلاً مدينة إرمنيكة التابعة لقرامان في ولاية قونية، ويني شهير قرب بورصة. ولكن الأتراك أعادوا إحياء المدن التركية الخربة عندما دخلوها، وأداموا حياتها. وبقيت أسماء أكثرها كما هي. هناك فرق باللفظ. مثلاً، باليوقاسترون التي تعني «السور القديم» صارت بالق أسير، وكينغريون تحولت إلى تشانقري، وتريبوليس غدت تيرابولو، وتفركة صارت تلفظ دفريي.

لا شك أن أسماء بعضها قد تغيرت، وأعيد إنشاء بعضها. ها هي المدينة التركية القديمة «موشقارا» قد أعيد بناؤها تقريباً بجهود الصدر الأعظم الكبير الصهر إبراهيم النفشهيري، وأخذت اسم نفشهير. ولا مفر من تسمية مدن كهذه «يني شهير/المدينة الجديدة». هناك بعض المدن التركية اليوم التي تحرّف لفظها مع الزمن، مثل: طرابظون كانت طرابيزوس، غيرَصون كانت كيراسوس، سينوب كانت سينوبة. ويجب تفهّم هذا أيضاً. ويمكن القول إن بعض المدن مثل أوردو جديدة تماماً.

المدينة هي قضية استحواذ عامل الجمع، والإدارة، وتخطيط الإنتاج؛ أي توزيعه. وهي مركز إداري في الإمبراطورية العثمانية كما كانت عند السلاجقة. أطلق العثمانيون على المنطقة الإدارية من الولاية اسمَ «سنجق». يُعين سيدٌ للسنجق، ويمنح السيد رتبة تتضمن شعاراً بطغراء واحدة. وتتشكل الولاية من تجمع عدة سناجق. ويكون أكثر السناجق والمدن استراتيجية وأهمية في الولاية هو سنجق الباشا. ويعيّن هناك سيد سادة برتبة وزير. وهذا «ماريشال». أي إنه «الماريشال» العسكري الذي يستخدم بلغات أوروبا وتركيا اليوم. كما ترون، بقيت الإدارة عسكرية حتى القرن التاسع عشر. في الحقيقة، إن سيد السادة ليس العنصر الرئيس، بل إنه المنسق الرئيس. وهو عسكري بكل معنى الكلمة. لأن كل فارس جباية سنجق، وكل سيد سنجق يقود جنوده، وهؤلاء يجتمعون تحت راية سيد السادة ذات الطغراءات الثلاث في زمن الحرب، ويلتحقون بجناح جيش الوافدين. أي إن للجيش العثماني بنية تجعله يكبر كالهيلان وهو ذاهب إلى الحرب غرباً أو شرقاً. هذا يعني أن السناجق أدنى من الولايات، ويجلس على رأس السنجق سيد السنجق. ويُعين قاضٍ مستقلٌ إلى جانب سيد

السنجق، وليس تحت أمره. وأولئك على الأغلب من ذوي الرتب العالية ونسميهم «مولوية». وقاضي المدينة هو رئيس بلديتها في الوقت نفسه، ولديه مهمات مالية وإدارية أيضاً. يتقدم القاضي ببعض الطلبات إلى المركز باسم الأهالي كممثل لهم لأنه رجل دين.

مثلاً، يريد الأهالي أن يقيموا «بازار» في مكان ما، فيتقدم القاضي بالطلب. يريدون تغيير مكان ما، فيعرض الأمر. إذا تبرع أحدهم بمكان، ووقفه، ويريد الناس أن يعفى هذا الوقف من الضريبة، أو أن يُقام فيه بازار أو استراحة، فيقدم القاضي الطلب بالنيابة عنهم. كما أنه يشرف على بعض الأوقاف.

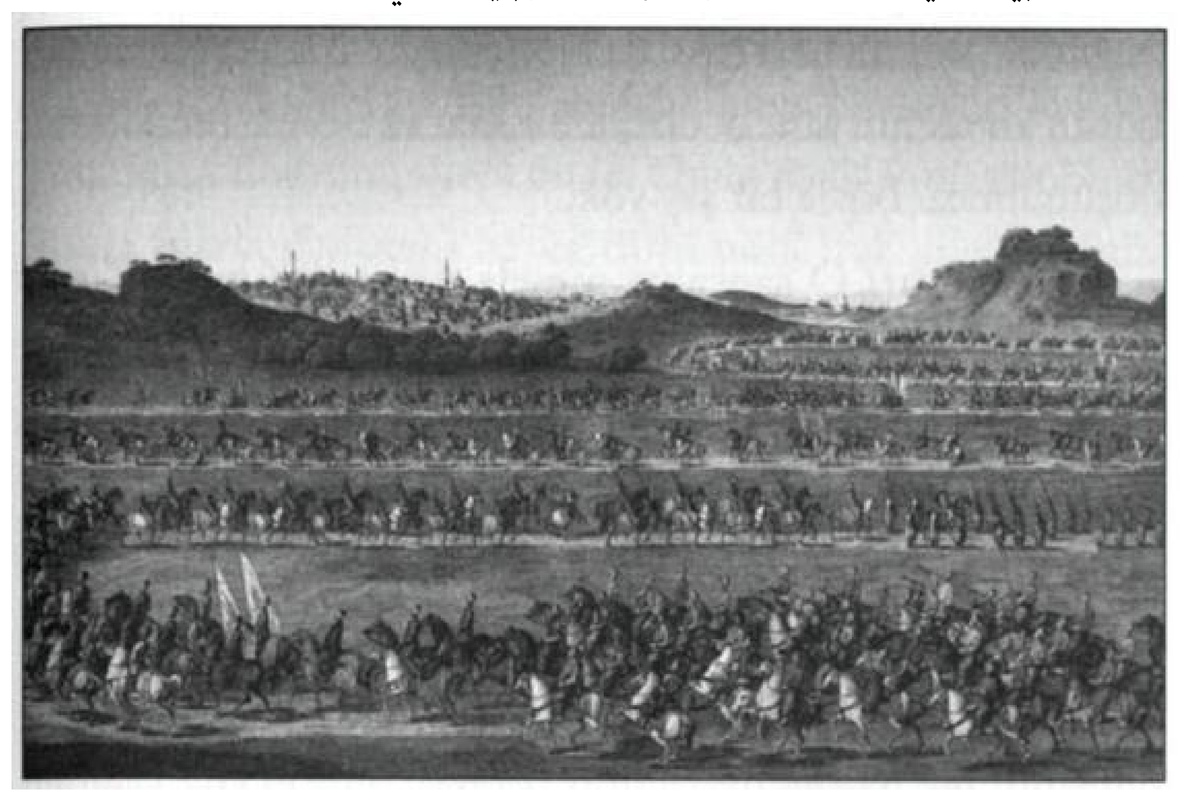
الشخص الثالث هو «الدفتردار» وبقي اسمه إلى اليوم، وهو ممثل وزارة المالية في الولاية أو السنجق. وهذا أيضاً موظفٌ مستقل عن سيد السادة وسيد السنجق؛ لأن عمله يفرض عليه هذا.



من اليسار إلى اليمين: كبير الوزراء، قائم مقام، الريس أفندي، عضو ديوان/ه. لالايسة

هناك القضاء أدنى من الولاية والسنجق. ثمة قاضٍ في مركزه، ويستلم شؤون الأمن «صوباشي/قائد الموقع». تُمنح القرى المنتعشة صفة زعامة، ويديرها شخص نسميه «زعيماً». الزعامة قرية دخلها جيد قليلاً ضمن نظام الجباية. ليس هناك شرط بأن يكون الدخل مائة ألف فضية، إذ يمكن أن

يكون أقل حيناً، وأكثر من هذا بكثير أحياناً، ولكنها بكل الأحوال قرية ذات دخل أكبر من وحدة الجباية السنوية بكثير. يُفرض على كل زعيم تجنيد عدة جنود وتجهيزهم، وحين يُقدِّم الجنود الذين يجندهم فوائد معينة، يمنحون جزءاً من دخل أرض الزعامة السنوي، أي يُمنحون إدارة قسم من القرية. لا يعطى هؤلاء راتباً، وراتبهم هو دخل الجزء الذي يُكلفون بإدارته. وهم ينفقون هذا الدخل حسب الأصول، أي إنهم يشرفون على طريق القرية، وعلى سبيلها إن وجد. مثلاً يُكلّفون فلاحين بهذا العمل مقابل إعفائهم من الضريبة. غير هذا، كل منهم مكلف بالانضمام إلى الحرب، وتجنيد جنديين أو ثلاثة مجهزين حسب دخل حصته. وليس هناك الكثير من أصحاب المخصصات هؤلاء الذين يقل دخلهم السنوي عن عشرين ألف فضية. ولا يمكن لهؤلاء أن يتحكموا بقرية فرادى. تُقسم القرية حسب مساحتها بين اثنين أو ثلاثة من فرسان الجباية ذوي المخصصات.



موكب معية باشا والي السنجق/دي لا إ سبانيسا

هذا يعني أن الوضع هنا يختلف عن النظام الإقطاعي الغربي، إذ لا تعطى المنطقة بسكانها بشكل كامل للسيد الإقطاعي. ثمة فرق في هذا النظام هنا. يُسمى هؤلاء الرجال في أدبياتنا السياسية حسب (مبجل قراي) «لوردات بيروقراطيون»، وهم طبقة تشرف على الأرض، وتديرها، ولكن ضمن آليات تم تطويرها لتحول دون اكتسابهم الاستقلالية. بالطريقة نفسها، لا

يمكن لزعيم أن يحكم قرية أو قصبة وحده. وإدارة السنجق أيضاً لم تُترك بالكامل لسيد السنجق. مثلاً، كانت ولاية قونية في ذلك الوقت ولاية كبيرة جداً. ونيدة أحد سناجقها، ونفشهير هو السنجق الخاص. على سبيل المثال، لا يمكن التفكير بأن تُترك إدارة أراضي نيدة باعتبارها سنجقاً لسيد السنجق. ليس ثمة شيء كهذا.

حسن، كيف إذاً؟ مثلاً، لسيد سنجق قرشهير التابع لأنقرة أرض في سنجق آخر. ويمكن أن تكون أرض سيد نيدة أيضاً في آقشهير. يُعين هناك وكيل، ويجمع هذا الوكيل الضريبة المحددة باسم السيد. يُرسلُ جنوداً لكي يقوموا بهذا العمل. وكانت ضرورة هذا واضحة تماماً. إذا ذهب الدخل كله بحريق أو سيل غطى المكان، يمكن أن تلبي الأرض الأخرى الحاجة، وتمكّن من الخدمة. ولكن الأهم في هذا الأمر أنه لا يمكن لأحد أن يكون «سيداً» - «لورد» - وحده في منطقة معينة. فالنظام المطبق في الشرق منذ القديم، والمستمر إلى الآن يحول دون هذا.

خذوا على سبيل المثال ولاية قصطامونو الكبيرة جداً. لم تكن قصطامونو حينئذ كما هي اليوم. أي بولو المعاصرة، وزنغلضاق المعاصرة - إذ لم يكن هناك سنجق سينوب - حيث تضم الولاية سنجق تشانقري، وسنجق سينوب، وكان سنجق تشانقري يسمى: كنغيري. وعليكم ألا تعتقدوا أن أملاك سيد السادة الذي يجلس في قصطامونو كلها في هذه الولاية. لا، فلديه أملاك في أنقرة أيضاً. وحتى إننا إذا دققنا، فسنجد أن لديه أملاكاً أيضاً في سناجق بورصة وجوارها التي نسميها هداونديغار. وهذا يؤمّن له دخلاً يحقق له أماناً مادياً، ولكنه في الوقت نفسه يمنعه من أن يكون شخصاً قوياً وحده في مكان معين. بقي القول إن القلاع في مركز السنجق والولاية تتبع المركز مباشرة. وفي هذه، ثمة قائد إنكشاري يدعى «ديزدار/قائد القلعة» وجنود القلعة. وهؤلاء يغلقون أبواب القلعة على سيد الولاية أو السنجق الذي يتمرد. كيف يعيش الرجال داخل القلعة؟ هل يحافظون على المكان جيداً؟ هل يعيشون بأدبهم؟ هل يُتركون دون أن يحصدوا شيئاً؟ هل تُراقب ذخيرتهم؟ يقوم القاضي بهذا التفتيش وليس سيد السادة. ثمة موقع إنكشاري في كل قلعة مركز سنجق أو ولاية. ويُسلط على رؤوس الآخرين مثل سيف ديموقليس، ويحول دون تمردهم. وإلا، كيف يمكن أن يُفسر النظام المركزي بغير هذا. المراسل ينقل فرماناً من إسطنبول، والفرمان يأمر بقتل باشا، والباشا يمد رأسه. هذا نظام مختلف تماماً.

هناك أشخاص نخبة لديهم امتيازات يتخرجون من مدرسة القصر

السلطاني. ولهؤلاء المميزين مهام طوال حياتهم. إذا نُقل أحد من مكان إلى آخر، أو عُزل يحل أحدهم محله. لا يمنح هذا المميز مخصصات حسب شروط الحياة. ولكن مخصصات الزعماء وأصحاب الأعطيات تمنح حسب شروط الحياة. ويؤول المكان لابنه من بعده إذا التزم بالشروط، وذهب إلى الحرب، ولم يُعزل بسبب فساد أو تصرف غير أخلاقي. ويُعد هذا الأمر توريثاً. وبالطبع، من الصعب جداً الحصول على وثيقة أعطية. وهذا ليس وضعاً عرضياً. تعطى وثيقة الأعطية بعد أن يُمرغ أنف الشخص كثيراً لكي لا يشعر بأن مكانه مضمون، ولا يفكر بهذا. إنها وظيفة. وهذه إمبراطورية مركزية.

لا شك أن فرض رقابة الموظفين أحدهم على الآخر، والرتبية العسكرية جعلا نظام الولايات يبقى واقفاً على رجليه. وهناك تشابه غريب بين أنظمة الملكيات الشرقية وأنظمة إمبراطوريات البحر المتوسط. تعتمد هذه الأنظمة كلها على نظام الرعاية الذي يمنح الرعية الأرض كأمانة لكي تستثمرها. وهذا إجراء يمكن عمله بالتدوين بعد الفتح مباشرة، وقبل أن ينقشع دخان البارود. ماذا يُزرع هناك؟ وكيف هي الخصوبة؟ وكم عدد القرى؟ وكم تعداد السكان؟ كله يسجل. أولاً، يُسجل في الدفاتر ما إذا كانت الأرض ستمنح أعطية أو استثماراً، أو ستعتبر وقفاً، أو ستبقى ملكاً لأصحابها السابقين. ثانياً، يُسجل في دفتر آخر يدعى السجل المفصل من ستفرض عليه ضريبة من السكان، ومن صاحب حق هناك. وهذه وثائق مهمة لا يمكن الاستغناء عنها على صعيد التاريخ الاجتماعي لإمبراطوريتنا.

كيف تغيّر هذا النظام؟ مما لا شك فيه أن جيوشاً مركزية أسست في القرن الثامن عشر. تطورت التقنيات ووسائل المواصلات في القرن التاسع عشر. ولا بد من نظام مالي مركزي يديره خبراء وبيروقراطيون ماليون من أجل إطعام هذا الجيش بشكل مستمر، أي ستفرض ضرائب، وسينعكس هذا على الأطراف. سيغدو اسم الولاية محافظة، وسيُعيَّن محافظ بدلاً من سيد السادة أو الباشا بمقام الوزير الذي كان على رأس الولاية. والمحافظ مدني. ولكن هناك جيشاً أيضاً، وعلى رأس هذا الجيش يوجد مشير. وليس هناك تداخل بين مجالي عملهما. كيف سيؤسس توازن بينهما؟ هل هناك أمكنة تسبب خللاً في التوازن؟ أجل، وما زالت مستمرة إلى اليوم. سميت السناجق التي تحت إدارته متصرفية. والمتصرفية لواء، وعلى رأسها متصرف، وهو موظف مدني، ويأتي القضاء أدنى من اللواء. ولأن القاضي خَرَجَ من الحياة الإدارية في الدولة وحدد عمله في المحاكم فقط، فقد حل في القضاء

محله قائم مقام، ويتخرج هذا من مدرسة الحقوق، وهو من الموظفين العامين. إلى جانب هؤلاء يوجد في مركز السنجق أو المحافظة دفتردار، وفي القضاء شخص يدعى مدير المال، وثمة وحدة إدارية أدنى من السنجق مكروهة وغير منتشرة هي الناحية. القرن التاسع عشر هو قرن الإدارة المتشابكة. وحين كانت القرية مختلطة بين المسيحيين والمسلمين كان يُعيَّن فيها مختار ورجل دين من كل دين(خوري/إمام). وتُشكّل هيئة اختيارية. أول الأمثلة اليوم هو بلغاريا؛ أي محافظة طونا. وهذا نظام كتبه الباشاوان مدحت وجودت. لقد كتب هذان المثقفان العثمانيان النظامين الأساسي والداخلي لإدارة الأطراف والبيروقراطية المركزية الحديثة للقرن التاسع عشر. بعد أن أنهى حكيم إدارة مرحلة التنظيمات مصطفى رشاد باشا إدارة الباشاوين علي وفؤاد، تعقّدت الأمور على غرار كل شيء، وأصبحا نموذجين عدوين. وهذا تطور غريب جداً.

تسير تركيا بسرعة على طريق نظام جديد يعتمد على القديم. تتطور الإدارة المركزية عبر السكك الحديدية والبرق والمدارس التابعة لوزارة المعارف، ويزداد عدد الموظفين. وبدأت المحافظات الضخمة تسعى للانقسام من أجل الارتباط أكثر بالمركز. وها هي يوظغات وقرشهير وقيصري تخرج من محافظة أنقرة الكبيرة. وخرجت إتشل وجزء من أنطاليا من محافظة قونية الكبيرة. وفي السنوات الأخيرة، بدأت محافظات جديدة تظهر مثل بيشهير، وإريلي، وآقشهير. خرج من نيدة مكان يدعى آقصراي. وبالشكل نفسه خرجت بورصة، وكُتاهية، وبيلجك، وتشنق قلعة من هداونديغار الضخمة. وهذا تشكّل جديد للولايات القديمة.

أسست الدولة العثمانية في روملي منذ القرن الرابع عشر نظام سنجق بإدارة شاهين باشا لالة. وخلال فترة قصيرة، امتدت الولايات إلى المجر كلها تقريباً، وبولونيا. حتى إنّ نظام الولايات يُرى في جورجيا وأذربيجان التي لم يحافظ عليها بعد الفتح سوى لفترة قصيرة. الغريب جداً أن الولايات القديمة التي تأسست شكلت منشأ الدول المؤسسة حديثاً. كانت هناك وحدة بلغت هذا الحد على الأصعدة القومية والجغرافية والاقتصادية. وظهرت مشكلة حيث لم يَسْرِ هذا النظام. استمرت المشكلة في الشرق الأوسط لأن الإنكليز والفرنسيين قسموا المنطقة بالمسطرة دون أخذ الولايات العثمانية بعين الاعتبار؛ لأن تلك الخطوط مصطنعة. الخط المفيد هو ذاك الذي يقسّم الولايات العثمانية وفق مبدأ تاريخي واقتصادي وأمني. يجب على تركيا اليوم أخذ هذا التقليد بعين الاعتبار. على السياسيين أن ينتبهوا

ويفكّروا عندما يُقدّمون تنظيمات وتقسيمات مختلفة. وبالطريقة نفسها، على الناس في تركيا أن يتعرفوا على إدارة أجدادهم للإمبراطورية بشكل جيد.

نظام الأقليات والملل عند العثمانيين

ينبغي أن نتوقف عند مفهوم «مِلّة» في الإمبراطورية العثمانية ومجتمعها. فنحن ندخل في صراع مليء بالتفسيرات الخاطئة المنعكسة على حياتنا السياسية نتيجة نقص معلوماتنا في هذا الموضوع.

«ملة» كلمة عربية. ويجب أن نبحث عن جذر الكلمة العربية أو الاصطلاح العربي أسلوبياً في العبرية والآرامية، وفي بعض الأحوال في اليونانية كما في كلمة « Politikon ». لأن العربية بوصفها لغة عالمية شاملة في الفلسفة والسياسة تعود بجذورها إلى أختيها العبرية والآرامية من العائلة السامية. ونعود إلى اليونانية أيضاً بسبب التمدد الثقافي بالمفاهيم في القرون الوسطى. بناء على هذا، إنّ أي بحث إسلامي أو عربي لا ينظر في دائرة هذه الحضارات الثلاث يبقى دون معنى.

«ملة» كلمة عبرية قبل العربية، وانتقلت إليها من الآرامية. وهي تعني «قول». ونحن هنا أمام كلمة مستعارة. فالقول هو القلم ذاته. أي إنه « logos »، وجماعة أو طائفة أو تكتل حول إيمان يلتقي على كلمة الله، وتعني العقيدة. هذه هي الملة حسب فهمنا. وهناك مفهوم الملة الذي استخدم في الجمهورية التركية. كلمة «ملة» هذه واحدة من الكلمات العثمانية الكثيرة التي اخترع لها الأتراك في القرن التاسع عشر مفهوماً هو ترجمة مباشرة لكلمة قومية (nation). (nation) كلمة لاتينية. والجذر الذي اشتقت منه هو « etnos /قومية»، من اليونانية. وهكذا ترجمت الجمهورية التركية كلمة ملة التي ليست لها أي علاقة بكلمة etnos إلى etnos ، وباتت تستخدم بهذا المعنى.



كنيسة الروم الأرثوذكس ذات السمك/توماس أللوم ... 72: البطريركية الكبرى في فناربهت شة/ب. سبراسبيرغ

لم يعد ممكناً اليوم العودة إلى نظام الملة. إذ ثمة مؤسسات إمبريالية تتطلب طرازاً إمبراطورياً ولا تكتفي بأيديولوجية إمبريالية. وكما أن البيزنطي ليس اليوناني الحديث نفسه، لا يمكن لليوناني الحديث أن يفهم الأيديولوجية البيزنطية في أي زمن.

كلمة بيزنطي لا تعني أي شيء بالنسبة للناس الذين كانوا يعيشون في تلك الإمبراطورية. لأن أولئك روم من روما. كلمة بيزنطي اختراع أيديولوجي. الهدف من استنكار وجود الإمبراطورية الحقيقية هنا هو منح صفة الإمبراطورية لإمبراطورية روما الجرمانية المقدسة. فهذا تناول غريب جداً، نحن نعرف أنه على الرغم من معرفة أجداد الأتراك المقيمين هنا وأجداد المسلمين كلمة ترك، واستخدامهم لها أحياناً، فقد كانوا يطلقون على أنفسهم بشكل رسمي صفة روم؛ لأننا ورثة إمبراطورية الروم، ونحن روم حتى لو كنا مسلمين، ولأننا إمبراطورية رومية استمرت أعمال الكنيسة بسلاسة عندما آلت حمايتها إلينا. أي إن الإمبراطورية استمرت، وقد تقبلت الكنيسة الإمبراطور داخل الإمبراطورية على الرغم من كونه مسلماً وعدم حبهم لهذه الصفة. إنه إمبراطور روما، وطوّر النظام الذي هو جزء منه على هذا الأساس. إمبراطورية الأتراك هي إمبراطورية المسلمين، ولكنها روما.

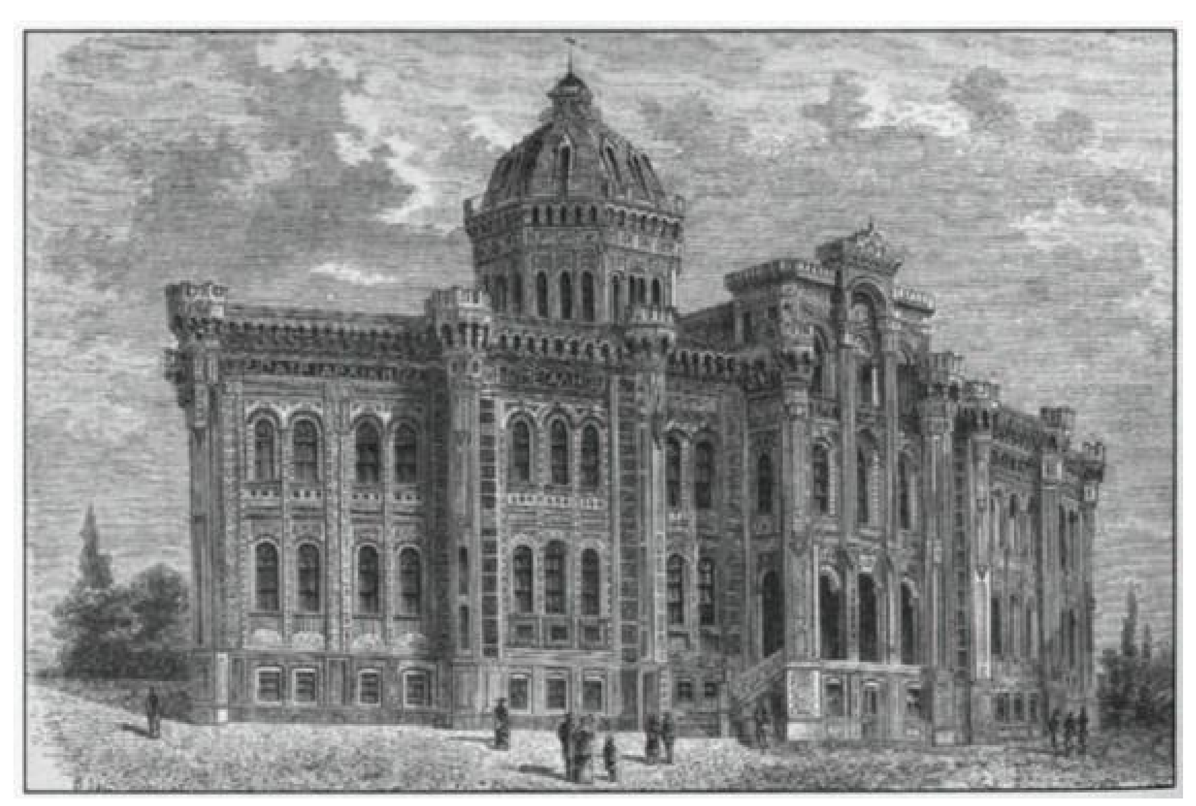
من الصعب جداً فهم روما هنا. مع الأسف، إنّ مفهومنا للتاريخ اليوم، ومفهومنا الشعبي يجعلاننا لا نفهم ما هي إمبراطورية الروم. إنها لا تعني الإمبراطورية الرومية المسيحية فقط. لقد كانت في بعض الأزمان مسيحية، وكانت وثنية (pagan)، كما كانت مسلمة أيضاً.

كانت للروم في زمن ما لغة قومية، وهيمنت عليها قومية (etnos) معينة. ولكن، على الرغم من كل شيء، كانت هناك لغات أخرى تعيش بجانبها. ولا شك أن اللغة العسكرية في الإمبراطورية كانت واحدة دائماً. كان الجيش في روما الأولى يستخدم دائماً لغة واحدة هي اللاتينية على حدود بلاد الرافدين أو على حدود ألمانيا الباردة البعيدة. وفي فترة روما الثانية، كان الجيش يتحدث اللغة الهيلينية في مصر أو البلقان أو خراسان. وفي عهد العثمانيين، أي روما الثالثة، كان الجيش على ضفاف طونا أو الفرات ودجلة، أو على حدود الحبشة يتحدث اللغة التركية؛ لأن لغة القيادة العسكرية مهمة جداً. غير هذا، تستخدم البيروقراطية لغة واحدة أيضاً، ولكن هناك لغات أخرى إلى جانبها. عندما تنتقلون إلى الحياة الاجتماعية فاللغات والأديان متنوعة جداً. ويجب أن يعتبر عيش هذه الجماعات ضمن محافل خاصة أمراً طبيعياً. لا يمكن التفكير بطريقة عيش مختلفة لأعضاء هذه المحافل خارج عقيدتهم الدينية. لا يقابل الانتقال من دين إلى دين في هذا النوع من الإمبراطوريات بتسامح. أي إن الدين الذي كان يهيمن على الإمبراطورية الرومية قبلنا هو المسيحية، وكان من المرحب به جداً أن يكون المرء مسيحياً. ويُرحب في زمننا لدى الدولة أن يكون الأفراد مسلمين، وأن يهتدوا. ولكن، من غير المرحب أن يتحول المرء من اليهودية إلى المسيحية، حتى إنه لا يرحب بانتقال الشخص من مذهب إلى آخر ضمن المسيحية. بقي الأمر على هذا النحو حتى القرن التاسع عشر، وأصبحت الأحداث من هذا النوع طبيعية، وبدأت تنتشر. يجب الوقوف عند هذا الأمر.

لا شك أن الملة في إمبراطورية من هذا النوع تعني نوعاً من الوحدة. والاسم الذي يطلق على القائد الروحي للملة يتشكل من دمج المفردتين اليونانيتين « ethnos » و« arhon »، ليغدو المصطلح: « etnarh » أي كبير الملة. وهذا الشخص لا يرعى الشؤون الروحية فقط، بل الإدارية والحقوقية وحتى المدرسية. التطور الغريب جداً الذي حصل هو أن السلطان محمد الفاتح دعا البطريرك غيناديوس في عيد الميلاد لعام 1454 إثر أشهر شتاء عام 1453 حسب التقويم الغربي، وصور بابينغر هذه

الدعوة لأوّل مرة.

لم يكن بابينغر شخصاً مضطراً للتعاطف بشكل خاص مع الأتراك أو الأرثوذكس، أي إنه كما تعلمون لم يكن في هذا الموضع، فهو (متعثمن)، ومؤرخ عثماني من بافاريا. وقد صوّر هذه المراسم بشكل دقيق جداً؛ بدءاً من استلام البطريرك الصولجان من الحاكم، إلى تناوله الغداء مع السلطان محمد الفاتح على الرغم من إلغائه عادة تناول الطعام مع وزرائه ورجال الدولة. وبعد الغداء، رافق الوزراءُ جميعاً البطرك في طريق العودة. وأهداه الحاكم خيولاً رمادية. الخيول الرمادية رمزٌ مهمٌ للهيمنة، وامتطى البطريرك جواداً رمادياً بصفته رئيس ملة، أو على الأصح رئيساً لملة مشتركة، وعاد إلى البطريركية. لا شك أن المكان الذي عاد إليه ليس بطريركية اليوم؛ لأن هذه أنشئت في نهاية القرن السادس عشر. كانت البطريركية في ذلك الوقت وسط المدينة. ومن المتوقع أن تكون بجوار جامع الفاتح اليوم. ومنذ عهد أسرة باليولوغ وهي لا تلعب دوراً قيادياً روحياً فقط، بل تحمل مسؤوليات السلطة الإدارية والمالية والعدلية والتربوية. واستمر الأمر على هذا النحو إلى مرحلة التنظيمات. الجانب المهم جداً أيضاً هو أن البطريركية الأرمنية التي تمثل اتحاد كنائس يُدعى «ضد خالقيدون» (Anti Chalcedony) والمستمرة بوجودها خارج هذا المذهب انتقلت إلى إسطنبول. لم تكن للأرمن قيادة روحية في إسطنبول، كما لم تكن لبطريركيات اشميادزين، وسيس (سيسية الأرمينية)، وآكدمار، والقدس قيادات روحية في إسطنبول. قيل لكل منهم: «عُينت رئيس ملة»، أي « Etnarh ». وهذا نظام رومي بالكامل. ليس مهماً من يكون الزعيم الروحي. حتى الكاتوليكس (جاثليق/متقدم الأساقفة) في خالقيدون يتبع للإمبراطور؛ فهو يدفع له الضريبة، ويخضع لإجراءاته الجزائية. غير هذا، العلاقات الروحانية في ما بينهم تخصهم هم، وليست مسؤولية الإمبراطور. وهذا يستمر على هذا النحو.



الثانوية الكبرى في فنار

الكنائس التي لم تشارك بقرارات مجلس قاضي كوي الأربعمائة والحادي والخمسين، سميت « Chalcedony Anti » وتعني الكنائس المناهضة لقاضي كوي (خالقيدون)، وهذه الكنائس هي الكنيسة القبطية في مصر، والكنيسة السريانية القديمة، والأرمنية، وقد أُخضعت ذات فترة في الإمبراطورية لإدارة واحدة. لقد تمت المحافظة عليها ضمن إدارة واحدة على الرغم من كونها تخضع بشكل غير رسمي لأحكام مالية ونظام داخلي مستقل. بقي الأمر على هذا النحو حتى القرن التاسع عشر...

أخيراً، ثمة خصوصية مهمة جداً في هذه الإمبراطورية؛ وهي أنها تضم نسبة كبيرة من السكان اليهود. وهؤلاء منهم من كان يعيش هنا، وهم الباقون من بيزنطة ويسمون رومانيوت، ومنهم من يعيش في منطقة الشرق الأوسط. ولكن الجزء الأكبر منهم مهاجرون من إسبانيا والبرتغال عن طريق إيطاليا. وسينضم إلى هؤلاء في القرن التاسع عشر «الإشكناز»، أي مجموعة اليهود الألمان الذين يتحدثون لغة الإيديش (اليبدية). ونحن لا نعرف هؤلاء كثيراً. ثمة ثقافة يهودية متوسطية كلاسيكية ضمن اليهودية العثمانية في القرن التاسع عشر التي يشكل أغلبها اليهود ذوو الجذور الإسبانية والإيطالية والبرتغالية. ثم هناك في المدينة التعددية يهود يتحدثون العربية، ويحافظون على الثقافة شرق الأوسطية ولا يظهرون كثيراً. ولكن الأهم هم

أولئك الذين هربوا من أوروبا الشرقية ولجأوا إلى الدول العثمانية في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، ويتكلمون لغة الإيديش. وهؤلاء يكملون البنية.

مع بدء القرن التاسع عشر دخل الناس بنية مختلفة تماماً. إصلاحاتنا في القرن التاسع عشر تعتبر إصلاحات، ولا تعتبر كذلك في آن واحد. كانت إصلاحات لأنها غيرت هذه البنية، ولكنها في الوقت نفسه لم تكن إصلاحات لأنها حافظت على التقاليد المستمرة منذ القِدَم.

تُفسّر قضية عدم خدمة غير المسلمين في الجيش في أدبياتنا التاريخية والسياسية بطريقة خاطئة جداً؛ نتيجة المعلومات التاريخية الخاطئة. كان غير المسلمين يخدمون في الجيش. ولم يكن هؤلاء يخدمون بصفة أطباء وصيادلة ومهندسين فقط، بل محاربين أيضاً. ولم يكونوا من طبقة الضباط فقط، بل من طبقة الأنفار أيضاً. كانوا كثيرين إلى درجة أن البحرية العثمانية كانت تلقي مراسيها في عيدي الميلاد والفصح، لأن جزءاً كبيراً من البحارة مضطرون للعودة إلى الديار من أجل العيد. هذا الوضع والتطبيق غير محددين بالطبيب ألكساندروس أو الكيميائي بوليكاروس أو الصيدلي داديان أفندي. فهناك عدد كبير بين البحارة من غير المسلمين.

وهناك من يدرس في المدارس العسكرية. لقد سُحب غير المسلمين إلى الجندية في الحرب العالمية الأولى، ولكننا لا نعرفهم جيداً لأنه لم يتم التحضير بدقة لمصدر جلبهم. ونتيجة لعدم إجراء إحصاء سكاني صحيح، واعتبار ثلث سكان الإمبراطورية من غير المسلمين، تُقبل في كلياتنا الهامة كالطب والبيطرة النسبة نفسها من غير المسلمين. ويقبل في المدرسة الإدارية أيضاً طلاب منهم ليتخرجوا كوادر إدارية. يحدث تنافس بين الجماعات المسيحية. مثلاً يعترض الأرمن قائلين: «يُقبل عدد أكبر من الروم، ويجب أن نكون نحن الأكثرية». وتجري بعض التعديلات أحياناً. ولكن الطلاب دائماً يُقبلون وفق مبدأ العدد النسبي « clausus numerus » وهو واحد من ثلاثة. واللافت للنظر هو وجود ضباط ورقباء غير مسلمين في قطعة المراسم عند أداء التحية وتحية الجمعة. وقد وصل الأمر إلى درجة أن الكاثوليك الأرمن ومن كانوا يُسمون لاتينيين، وهؤلاء أتباع كنيسة الروم الكاثوليك قالوا: «ليكن هناك رقباء وملازمون منا». وقد قبل هذا الطلب.

كما أن أولئك الناس كانوا يعيشون في مجتمع عصري، ولم يكن لديهم تنافس على وظائف محددة، ونسق واحد « uniform » من المناصب. كل شخص ينافس ضمن دائرته. يتنافس الأرمن في ما بينهم للدخول في الزمرة

الراقية المدعوة «إمارة». ويتنافسون في ما بينهم من أجل الحصول على مواقعهم. اليهود أيضاً يتنافسون بالطريقة نفسها ضمن دائرتهم. وهذا ينسحب على الروم الأرثوذكس أيضاً. بعد فترة، بدأ المقدونيون والبلغار والهيلينيون يتنافسون وفق الانتماء القومي في القرن التاسع عشر. مثلاً في تاريخ بلغاريا خلال القرن التاسع عشر، وخاصة أثناء إصلاحات المعارف، كان العنصر الأهم الذي يكدح البلغار من أجله هو أن يكون الموظفون في الباب العالي من أتباع بطريركية الفنار للروم أكثر من الأتراك المسلمين.

الدين ثقافة، وتتشكل الثقافة حول العقيدة الدينية، وعندما يفقد الناس هذا تحدث لديهم تغييرات في أسلوب حياتهم ونظرتهم إلى الحياة؛ حتى وإن حافظوا على لغتهم. ليست القضية قضية أرثوذكس أو بروتستانت. نحن هنا لا نناقش ديناً، ولكننا نناقش ثقافة. لهذا السبب قلنا إن البروتستانتية تخرب ثقافة هذه الدول. وقد وجد هذا الأمر ما يصوبه، لذلك من الضروري التوقف عنده.

يمكننا أن ننظر إلى يومنا هذا لكي نفهم ما خربه النشاط البروتستانتي في الجغرافية العثمانية خلال القرن التاسع عشر. كان هذا أحد التطورات التي قلبت نظام الملة العثماني الكلاسيكي رأساً على عقب. واجهت الملل، أي المجموعات العقائدية القديمة، تطورات جديدة مرفقة بصراعات جديدة وتوترات أثرت على كنيسة الروم الأرثوذكس، وكنيسة الأرمن القديمة، والسريان. وأخيراً، الحدث المهم جداً في القرن التاسع عشر هو اتساع نطاق تغيير المذهب. دخلت ملة اللاتين التصنيف الملي بعد أن كانت لا تدخل التصنيف سابقاً، لأنها تضم كثيراً من الإيطاليين. أي إن بعض الإيطاليين الذين لم يستطيعوا تحصيل قوتهم في إيطاليا، جاءوا إلى هنا، وفعلوا حسناً بمجيئهم. على الأقل، نحن مدينون لهم بطراز «بيه أوغلو» المعماري. كانت اللغة الإيطالية في ذلك الوقت منتشرة على نطاق واسع. والحقيقة أنها لم تكن الإيطالية التي نعرفها.

الأمر الأكثر غرابة هو أن السريان والكلدان المهاجرين من منطقة الرافدين العليا وخاصة الكاثوليك منهم ألحقوا بهذه الطائفة، وبالطبع نتيجة هذا تركوا لغتهم المحلية. وهكذا، ظهرت في تركيا جماعة كاثوليكية تتكلم التركية؛ وهذا تطور غريب. أي إن الدين لم يُسحبْ من حياتنا ويَزُلْ كما يعتقد البعض، بل استمرّ كعامل ثقافي، وما زال مستمراً في حالة تغيّر.

لا بد من الوقوف على هذا بإلحاح. كان العثمانيون إمبراطورية، وفي القرن التاسع عشر تلقت بنيتها القومية الكلاسيكية ضربة. طورت آليات

جديدة خاصة بها عندما تلقت هذه الضربة، ودُفن الكثير من جوانبها في التاريخ مع بنيتها السياسية هذه، ولكن هناك أموراً كثيرة أيضاً لم تُدفن. يجب أن ندرس منهجية هذا النظام جيداً. علينا أن نفعل هذا لكي ندرك حاضرنا جيداً، ولكي ننتج حلولاً لبعض مشاكلنا. لا يحق لأي تشكيل اجتماعي - مجتمع - أو أي تشكيل سياسي - دولة - أن يرفض التاريخ أو يتجاهله. وفي حال فعل هذا، فإن التطورات التي ستنجم عن ذلك ستفاجئ المجتمع حقيقة. وللأسف، سيدخل المجتمع حالة تأزم حقيقي نتيجة ظهور بعض التأثيرات غير المرغوبة، وسنتأذى كثيراً نتيجة تطورات مكروهة. الشيء المقترح هنا هو جهد علمي وحكمة إلهية، وإن شاء الله هذا سيساعد الجميع.

حصار فيينا الثاني ونتائجه

كان حصار فيينا الثاني -أي حصار عام 1683- حقيقة نقطة مهمة في تاريخنا. ولا شك أنه على الدرجة نفسها من الأهمية بالنسبة إلى النمسا التي خاض العثمانيون ضدها سلسلة حروب. لنقف هنا على خطأ اصطلاحي. يُستخدم اسم النمسا دائماً في كتب تركيا المدرسية. لا شك أن هذا يعبّر بشكل صحيح عن جغرافية النمسا وما تضمه من أقوام، لأن النمساويين اليوم يعتبرونها هكذا. ولكن الحقيقة هي أن هذه الدويلة كانت تدعى في ذلك الوقت «الإمبراطورية الألمانية»؛ لأن النمسا كانت أحد أعضاء الاتحاد الكونفيدرالي الذي نسميه الإمبراطورية الألمانية. ولكن الغريب في الأمر أن أراضي مقاطعة بوهيميا النمساوية والمجر بقيت دائماً خارج هذه البنية.

خرجت هذه الأرض من يد الإمبراطورية الألمانية بسبب فتح الأتراك لها في البداية، ولكنهم لم يستعيدوها بعد خروجها من يد الأتراك عام 1686 أيضاً. وينسحب الأمر نفسه على الجزء المسمى بوهيميا من تشيكوسلوفاكيا أيضاً. لأن أرض جمهورية التشيك اليوم كانت ضمن نمسا تلك الأيام. أما سلوفاكيا فقد كانت مرتبطة بالنمسا باعتبارها جزءاً من المجر. هذه دولة متحدة، وقد لعبت الزيجات دوراً أكبر من دور الحروب بتوحيدها. نحن أمام وحدة كاثوليكية، وبسبب الزيجات وصلت تلك الوحدة في القرن السادس عشر إلى مرتبة إمبراطورية عالمية. ولكن، لم يكن لها ثقل سياسي بالدرجة نفسها، وتفتّتت هذه الإمبراطورية بسهولة كما تشكلت لعدم تمتعها ببنية مركزية. مثلاً، تزوج ماكسميليان من آل هابسبرغ النمساويين ماريا ابنة الأسرة البورغونية. كانت بورغونيا في تلك الفترة تضم ديجون الفرنسية اليوم وما حولها، وبلجيكا، والمنطقة المسماة فلاندرة، أي إنها تضم هولندا وجزءاً من بلجيكا. كانت دولة غنية. واغتنت جداً بتجارة النسيج والصناعة. وتوسعت هذه الدولة بالزواج لعدم وجود ولد آخر لدى أسرة بورغونيا. تزوج الولد الذي وُلِد هنا (فيليب الوسيم) جوانا ابنة ملك أرغون وملكة كاستيليا، وبهذا أصبح وريث إسبانيا وكل تلك الجزر والمناطق المكتشفة في أمريكا. كأن هذا لا يكفي، فقد اختير الملك شارلكان أحد ابني هذا الزواج إمبراطوراً لألمانيا. بعد فترة، تخلى عن اللقب، وتركه لأخيه فرديناند. وفي الوقت نفسه، ترك له الأرض التي نسميها النمسا والتي كانت تدعى بوهيميا. ومع الزمن، انسحب آل هابسبورغ من إسبانيا أيضاً. وبسبب

انقطاع نسلهم، انتقلت إلى آل بوربون. تؤخذ الدول عن طريق الزواج. حتى إن هناك عبارة مشهورة حول النمسا: « Bella gerant alieni, tu felix Austria nube !/دع الآخرين يخوضون الحروب، وأنت تزوج أيها النمساوي السعيد!».

تنتقل الدويلات التي تُؤسس وفق زيجات من هذا النوع إلى تعقيدات أخرى بأحداث من نوع آخر. وهذه مرحلة مختلفة تماماً عما جرى في الدولة العثمانية وإمبراطوريتها. حدث حصار فيينا الأول عام 1529 في عهد السلطان سليمان القانوني، ولكن الحصار فُك بسبب عدم ملاءمة الوقت (اقتراب الشتاء)، وحدث تراجع. بعد حوالى 150 سنة، قاد الصهر مصطفى باشا قرة المرزيفوني من آل كوبرولو - وليس السلطان - جيشاً كبيراً ونفَّذَ حصاراً ثانياً. لا بد من قول هذا: على الرغم من أن مصطفى باشا ماريشال لديه ميزات معينة، فهو لا يمتلك مواهب تمكنه من قيادة جيش كذاك ليحقق نصراً كبيراً. أي إنه لم يكن شخصية تاريخية يمكن إدخاله بين الماريشالات غير القليلين في التاريخ التركي.

ليست هناك ضرورة لرواية نهاية الحدث. فقد ارتُكبت أخطاء استراتيجية. أهمها يتعلق بالقلاع المحيطة بفيينا. على الرغم من تنبيهات الوزراء ونصائحهم وتوصياتهم، لم يُسيطر على قلعة كاهلينبرغ المطلة من علٍ على مدينة فيينا، ومنها انطلق الجيش الليخي (البولوني) بقيادة جان سوبيسكي، وضرب الجيش العثماني المتمركز مقابل رافد طونا، وأوقع الجيشَ المحاصِر بين فكي كماشة. وبعد ذلك الحصار الذي انتهى بكارثة، تعاقبت الكوارث على مدى سنوات؛ فقد سقطت أويفار عام 1685، وبودين عام 1686، أي فقدنا مجر اليوم. بعد هزيمة الجيش العثماني في موهاج عام 1687 لم يبق بين أيدينا من الأراضي التي يعيش عليها المجر سوى تمشوار. وخرجت هذه من يدنا بمعاهدة باساروفتشا عام 1718. جلست الدولة العثمانية مع تحالف الدول المسيحية للتفاوض أول مرة عام 1699. وكانت تلك معاهدة بالمعنى الحديث. وعند توقيع تلك المعاهدة تبيّن أن الموظفين في رئاسة الكتاب لديهم تجربة دبلوماسية. سيغدو رامي أفندي باشا رئيس كتاب ذلك الزمان والصدر الأعظم. ويجب اعتبار هذا الأمر نوعاً من اتخاذ تيار الخارجية مكاناً له داخل الدولة. أنا أرى أنه ثمة فائدة من الوقوف بإمعان على القضية: بتوقيع معاهدة كارلوفتشا دخل العثمانيون أول مرة في نظام قانوني جديد يعتمد مبادئ القانون الدولي وقوانين روما. بعد هذا الأمر، ستحدد على هذا الأساس طريقة إرسال السفراء والهيئات إلى العواصم،

وأسلوب عملهم، وما إذا كانوا سيدفعون الضرائب، وقيمة هذه الضرائب، والإعفاءات التي سيحظون بها. وهذه مرحلة مهمة جداً.

الأهم هو أن مشهد أوروبا الوسطى بدأ يتغير. فقد أعيدت للدولة العثمانية بعض المناطق التي فقدتها أثناء حادثة فيينا عام 1699، ولكنها خرجت من يدها بعد فترة. كان من الواضح أن دولة عصر النهضة الكبرى وملكة البحر المتوسط والأدرياتيك المسماة سان ماركو وجمهورية البندقية صاحبة الحضارة الرائعة ستفقد مستقبلها.

لقد تمكنت الدولة العلية من استعادة السيطرة على المناطق التي خسرتها لصالح البندقية خلال فترة قصيرة. واستعادت المناطق التي أعطتها لروسيا في البحر الأسود حين لم تكن هذه الدولة بالقوة الكافية عبر اتفاقية بروت عام 1711. ولكن، لم تكن النمسا هكذا. لم تكن الإمبراطورية الألمانية - النمساوية تُعدّ قوية على الصعيدين الاقتصادي والعسكري، ولكنها بدأت تشكل تهديداً عظيماً للدولة العلية بعد هذا. لقد بدأت تطورها الاقتصادي.

بدأت النمسا تحقق نجاحاً تجارياً بعد أن كانت شركاتها التجارية التي تتعامل مع الشرق حتى ذلك التاريخ قد أفلست. حجم التبادل التجاري في حوض طونا مهم جداً؛ وقد دخلت المنطقة الممتدة حتى بلغاريا - أي الولاية العثمانية في حوض طونا - في تبادل المواد الأولية والمصنعة، ثم نـزلت إلى الأدرياتيك بعد عشرين سنة، وأسست ميناء تريست، ومدت يدها نحو تجارة البحر المتوسط. هذا غريب جداً.

تطوّر النمسا مجالات صناعية جديدة مثل الخزف والقماش. لا تنسوا أن عصر الجمهورية اشتهر بتأسيس صناعة السكر. وكنا حتى ذلك الوقت نأكل سكر النمسا وروسيا. وعانينا من هذا كثيراً في الحرب العالمية الأولى. بدأ انفتاح النمسا ضد الدولة العثمانية في أوروبا الوسطى والبحر المتوسط؛ خصوصاً بعد سيطرتها على أراضي المجر. وانتقلت الجيوش إلى مرحلة الجيش الموحد؛ وهذا من أهم خصوصيات القرن الثامن عشر. كانت الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي لديها جيش مركزي حتى تاريخ حصار فيينا. المتوقع أن ذاك الجيش ضم 18 ألفَ جنديٍ في عصر الفاتح، ووصل إلى 120 ألفَ مقاتلٍ في عهد القانوني، وكان جيشاً منظماً يضم ثكنات الجيش النظامي (قابي قولة)؛ أي مشاة الإنكشارية والفرسان. كان الجيش العثماني جيشاً يستخدم الأسلحة النارية. وازداد عدد العاملين بالألغام على صعيدي الأنفار والضباط في ثكنات الجيش النظامي. تجاوز عدد المقاتلين

ستين ألفَ مقاتل حين بدأ الجيش حصار فيينا. غير هذا، كان هناك جنود يأتون مثنى وثلاثاً وخماساً من الزعماء أصحاب المخصصات، إضافة إلى الجنود المجلوبين من الولايات المشكلة حديثاً من أجل الحملة. كان عدد مقاتلي الجيش يتجاوز مائة ألف، حتى إنه وصل إلى مائة وعشرين ألفاً أحياناً. وكان التخطيط لإطعام أولئك الجنود ومبيتهم رائعاً. لهذا السبب، كانت قابلية الجيش العثماني على التعبئة العامة المركزية، وقدرته على القتال في القرن السابع عشر كبيرة إلى أبعد الحدود.

وأثبت الجيش العثماني جدارته باستخدام تقنيات العصر الجديد الهندسية وأسلحته النارية. وظهر هذا جلياً بشكل خاص على جبهة كريت. تلك حروب لا تشبه اللعب بالسيف والترس. فقد استخدمت الجيوش العثمانية الهندسة العسكرية بتأهيلٍ عالٍ. وخرجت هذه الخصوصية المهمة جداً من احتكار الأتراك في القرن الثامن عشر؛ لأن النمسا وروسيا أيضاً أصبح لديهما جيش مركزي مقيم، أي إن الثكنة دخلت حياة أولئك الرجال كما دخلتها البزة العسكرية أيضاً، واضطر العثماني بعد فترة لمتابعة تلك التشكيلات، والأهم من هذا أن الدول الأخرى بدأت بتأسيس كليات عسكرية. وخرّجت الكليات ضباطاً مهندسين ومشاة ومدفعيين. لهذا اضطر العثمانيون أيضاً في القرن الثامن عشر لتأسيس كليات هندسة بحرية وبرية (المهندسخانة البرية السلطانية، المهندسخانة البحرية السلطانية)، ونتيجة الحاجة بُدئ بتأسيس كليتين للطب والبيطرة العسكرية. أوصلت هاتان المؤسستان القديمتان تركيا اليوم إلى النجاح في هذا المجال، لأنه قادم من تقليد.

هذا يعني أن النمسا دخلت في هذه المرحلة نشاطاً زراعياً جديداً، ونشاطاً تجارياً جديداً في حوض طونا، وانفتاحاً نحو البحر المتوسط. ولعب بشكل خاص دخول دوقية توسكانا ضمن حدود دولة النمسا - أي الإمبراطورية الألمانية في ذلك الوقت - دوراً مهماً في هذا الأمر. أصبحت النمسا مستقلة، وتسير وحدها. كان آل هابسبورغ - الدوقات الأكثر في النمسا - ينتخبون إمبراطوراً ألمانياً دائماً. وعندما أضافت النمسا مهارة الإيطاليين، استطاعت تنظيم نفسها في البحر المتوسط. وقد وصل الأمر إلى درجة وصول عائلات تجار إيطاليين من التبعية النمساوية إلى حلب واللاذقية وحماة وحمص. وأقام أولئك في تلك المدن. وهذا تطور مهم جداً.

القرصنة هي الأمر الأهم، وقد كانت حتى ذلك الوقت سياسة بحرية رسمية. كان التجار يحصلون من العثمانيين على عهود ضد القرصنة، وعُقدت

اتفاقيات تتعلق بهم. وهكذا كان يتحقق أمن السفر. استمرت هذه الخصائص باعتبارها بداية لسياسة البحر المتوسط حتى الحرب العالمية الثانية. أقول الحرب العالمية الثانية وليست الأولى؛ لأن سياسة - أي تجارة - دول شرق المتوسط البحرية دخلت حالة تراجع، وانتقلت هذه التجارة إلى دول مثل إنكلترا وفرنسا وهولندا، وتدريجيًّا إلى النمسا. بعد تحقيق الوحدة الإيطالية، بدأ إخراج النمسا تدريجياً. ولكن الهيمنة في أوروبا الغربية والوسطى استمرت حتى الحرب العالمية الثانية. ولكن ثمة أمرين تغيرا بعد هذه المرحلة. ونحن نعيش هذا التغيير في هذه الأيام. وفي الحقيقة، إننا نعيش مرحلة تاريخية مهمة جداً.

بعد حصار فيينا الثاني، ظهر من اللحظة الأولى فراغ للسلطة المركزية في البوسنة والهرسك ودول حوض طونا. لهذا السب فُرض على الدولة العلية إيجاد آليات جديدة. مثلاً عُيّن سادة سناجق من الباشاوات والمحاربين المحليين في المدن باسم «متسلم». وأصبح التجار الأغنياء والأعيان أصحاب كلمة مؤثرة في إدارة المدن. بدأت مركزية عدمية في مناطق مثل فوسكوبجة، وخرجت عن السياسة المركَزية القديمة؛ ولهذا السبب تطورت التجارة الخارجية براحة كبرى. بدأ الفقر ينتشر في البلد، واهتز الانضباط في الجيش. دخلت الإمبراطورية العثمانية بإصلاحات جدية من أجل إصلاح الوضع. لهذا السبب، لا تُعرف مرحلة القرن الثامن عشر، وخاصة «المرحلة الزنبقية» حتى مرحلة التنظيمات إلاّ قليلاً. وقليلاً ما بحثها المؤرخون العلميون، وقدّمها المؤرخون المدرسيون بأخطاء فادحة وغموض، ولكنها مرحلة تحمل أهمية بالغة في تكوين تركيا، وحياتها على صعيدي الدولة والأمة.

انتهى عصر التحويل الديني. وبدأ دخول العناصر الأناضولية إلى حياة الدولة مثل الصهر إبراهيم باشا النفشهيري، وخليل حمدي باشا الإسبارطي. وبدأت بنية الجيش تتغير، والأهم من هذا تغيّرت البنية الثقافية. وصار يُرى في حياة تركيا الفنية والثقافية والأدبية تغريب إلى جانب تتريك لافت للانتباه.

العصر الزنبقي

«العصر الزنبقي» اسم أطلقه المؤرخ الشهير أحمد رفيق بيك الذي صارت كنيته في ما بعد «آلطناي» على عهد أحمد الثالث في مطلع القرن العشرين. طبعاً، هذا ما يوقع ببعض الأخطاء. أولاً، لا بد من التوضيح أن إسطنبول أو تركيا لم تعرف الزنبق في القرن الثامن عشر، بل إنّ الزنبق زهرة أحبها الأتراك كثيراً في العصور الأقدم بكثير، وزرعوها في حدائقهم، وعرّفوا أوروبا بها. وهي الزهرة التي عرفها سفير الإمبراطورية الألمانية التي كانت عاصمتها فيينا في إسطنبول في عهد السلطان سليمان القانوني أوغير غيسلاين دي بوسبك (Busbecq de Ghislain Ogier) وهو هولندي الأصل من منطقة فلامان، وأحبها، وأخذها إلى بلده. ومن المحتمل أن الاسم استلهم من نوع زنبق «دولبند/ tulpen tulipen » لذلك سمي بالألمانية توليب (tulpe).

وقد عيش عصر زنبق جنوني يحاكي جنون عصرنا الزنبقي في هولندا قبل هذا بوقت طويل. انتشرت هذه الزهرة على نطاق واسع، وأحبّها الكثيرون وزُرعت كثيراً، وهُجّنت منها أنواع جديدة كثيرة، وأُحبت هذه الأنواع كثيراً - لأنها زهرة روحانية - ودُفعت فيها مبالغ كبيرة؛ مما جعل الناس يفقدون ثرواتهم في المزادات العلنية بدافع قمار هستيري.

يبقى العصر الزنبقي التركي مقارنة «بالعصر الزنبقي» الهولندي بريئاً ومتوازناً ومتواضعاً جداً. كتابة كلمة زنبق (لاله) بالحروف العربية شبيهة بكتابة اسم الله. لهذا اعتبر الخطاطون أن مهارة كتابة زنبق (لاله) لا تقل عن المهارة التي يتطلبها رسمها، وهي فعلاً هكذا. في الحقيقة، إن زهرة الزنبق البري أتت مع آل آلطاي، وهي تركية صافية، ويمكن أن نقدمها بوصفها زهرة قومية. وبكل الأحوال، إنّ زهرة الزنبق المحبوبة كثيراً والمنتشرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر دخلت الزخرفة التركية، وفن الخط التركي، وفن الخزف التركي بشكل مجرد. الأتراك يحبون الزنبق. الكثير من الناس يحبّونها، وكذلك الكثير من الأمم، ولكن مكانتها في حياة الأتراك مختلفة.

تغيّر أسلوب رسم الزنبق في القرن الثامن عشر، وأخذ شكلاً أكثر كلاسيكية. يعرّف علي تشلبي روغاني الأسكداري برسوم الزنبق وزخارفها المحبوبة جداً. لف مرض الزنبق كل مكان في ذلك الوقت. بنى رجال الدولة في القرن الثامن عشر قصوراً صغيرة لا تُعد باهظة الكلفة، ولكنها

تحمل الأسلوب البندقي والفرنسي بالتأكيد. وقد بنيت في حي «كاغتهانة» الذي يُعد الآن من أحياء إسطنبول المتطرفة المهلهلة للأسف، وتغطيه أبنية المخالفات. حُول مجرى نهر كاغتهانة في ذلك الوقت، وأجريت صيانة، وأنشئت برك هناك. يشرح هذا الشاعر الشهير نديم بقصيدته التي يحفظها التلاميذ في درس الأدب على مقاعد المدارس: «لنرَ ماء الحياة يتدفق من فم تنين/امش، لنذهب إلى صاداباد حيث الدفق». وعلى الرغم من أن تلك الحدائق دون فخامة حدائق فرساي في فرنسا، فقد أوجد حيٌ جديد فيه شلالات صناعية على جانبي حواجز، وخلفها نوافير تتدفق مياهها من أفواه تنينات.

لا شك أن هذا الوضع تسبب بانتشار القال والقيل بين الفقراء؛ كما يحصل في كل مدينة. وحين تمرّد الإنكشاريون لأن رواتبهم لا تُدفع بشكل منتظم متسببين بانتشار الغوغاء في المدينة حطموا حوالى مائة قصر حسب ما نقله «أيوانسرايلي».

كان العصر الزنبقي سبباً لمنشورات غريبة أيضاً. وسميت في ما بعد «منشورات». على الرغم من دخول المطبعة إلى تركيا لأول مرة في العصر الزنبقي، لم تطبع تلك الكتب في المطابع، بل كانت المخطوطات تنسخ باليد، وتُقرأ، وتُشاهد رسومها ومنمنماتها. يفسح عبيد الله أحد كتاب السير المجال في كتابه الموسوم «سيرة الزهّار» للكتابة عن أفراد المجتمع؛ بدءاً من نخبة طبقة علماء الدين ووصولاً إلى البستانيين، مروراً بالقصابين والشعراء وأصحاب المهن متناولاً الجميع... إنه كتاب سير (biography) أو عمل يمكن تسميته بالإنكليزية: « who is who ?». ونصادف في هذا الكتاب أسماء غريبة جداً، ونرى أن سكان إسطنبول مهما اختلفت طبقاتهم ومستويات تعليمهم فهم يجتمعون حول زهرة روحانية كالزنبق، ويقدمون فناً جديداً.

أحمد قاسم باشي أحد زارعي الزنبق والأزهار المشاهير في ذلك الزمان. ويسمى الزهر الذي يستنبته «الزنبق الأحمدي». ويستمر الأحمدون: أحمد أفندي فناري زادة من علماء الدين... وهذا معروف بزنبقه القبرصي، وأحمد آخر هو أحمد تشلبي اللّفت. ويطول الدور: أحمد الطويل الذي يعرّف بالزنبق ذي الطبقات. وأخيراً سنان باشا زادة سليمان بيك... الذي يُعرف بتهذيبه، ويُقدَّر ثمن بعض بصل الزنبق الهجين الذي يستنبته بمئات الذهبيات.

تنتشر هذه الحوادث وصولاً إلى شائعات باعة الزهر في السوق عبر قلم مدون الأحداث، وكما في كل مكان، يغدو من يصعب عليه تأمين

لقمة عيشه إن كان عدواً للزنبق. على الرغم من هذا، لم يطلق العهد على نفسه اسم العهد الزنبقي بالتأكيد، فمن أطلق عليه هذا الاسم هو أحمد رفيق آلطناي كما بينا في البداية.

تصوروا الزهر مقترناً بالأدب وبالموسيقى. هل يتخلف خطاطو العهد عن الآخرين؟ لهذا جمع سليمان سعد الدين مستقيم زادة كتاب السيرة الشهير: «تحف الخطاطين». لم يصدر بعده كتاب أدبي يتحدث عن الخطاطين بهذا المستوى. ويكمل المشهد كتابُ أحد كبار رجال القرنين التاسع عشر والعشرين محمود كمال إنان ابن الأمين الموسوم: «خطاطو العهد الأخير».

تُرى الدقة في كل زاوية من زوايا المدينة. قديماً، لم تُنشأ سوى السبُل. أما سبل هذه المرحلة فقد كانت أثراً للخط والزخرفة البارزة (relief). مثال على هذا، سبيل إسحاق آغا في الحي البعيد بيقوظ. عشرة أغصان تضج بالألوان وهي تصعد على جسم السبيل يمكن رؤيتها حتى في يومنا هذا. لم يمنح أمين الجمارك إسحاق آغا حيّه سبيل ماء فقط عام 1644، بل منحه جمالاً أيضاً. لا تستخفوا ببيقوظ. مصنع الزجاج المؤسس في ذلك العهد وزجاجيات بيقوظ ما زالت الأكثر جمالاً، ولا يمكن التخلي عن نماذجها في مجموعات الزجاج الداخلية والخارجية. أُنشئت في كان مكان من المدينة سُبُلٌ كالنصب. إنها ليست من النوع الذي يُبنى لتلبية حاجة. ها هو سبيل أحمد الثالث الشهير أمام باب قصر طوب قابِ. دع تزيينه جانباً، خط سلطان السلاطين مثال فريد خالد... في ساحة أسكدار، أمام جامع ميهرماه شقيق متواضع جميل للسبيل. وها هو سبيل أمين آغا مقابل جامع ضولما بهتشة. دعكم منه، فهناك سبيل طوبهانة المسمى سبيل محمود خان الأول الذي أنشئ بأمر من السلطان محمود الأول في طوبهانة... مروا عليه، هناك سبيل السلطانة صالحة بجوار عزاب قابِ (باب عذاب). كلها أعمال شهيرة تزيّن الساحات.

هناك سبيل لا يمكن للإنسان إلا أن يشفق عليه بشكل خاص. إنه سبيل مدرسة أحمد قرة باشا الدينية في طوب قابِ (باب المدفع) من أعمال المعماري سنان غير المعروفة كثيراً. لعله كان مصدر إلهام لسبل القرن الثامن عشر التي زينت الساحات كلها. كُلف المعماري سنان ببناء هذا السبيل من قبل الصدر الأعظم في عهد السلطان سليمان القانوني أحمد قرة باشا في القرن السادس عشر. جيلنا والجيل الأكبر منا يتذكران هذا السبيل الرائع الذي يشكل جزءاً من مدرسة الصدر الأعظم أحمد قرة باشا. وقد حُطّم بواسطة بلدوزر في أواخر عام 1950.

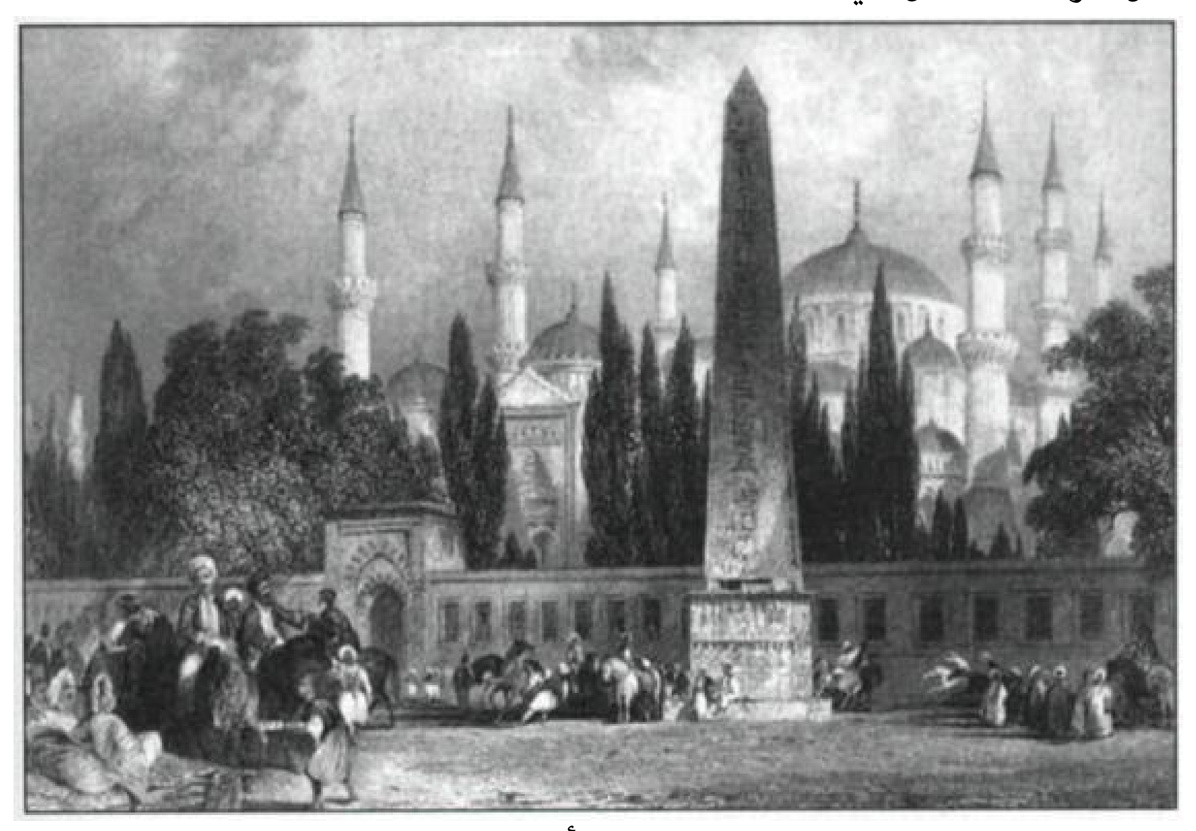
العصر الزنبقي مرحلة تطوير وتحديث جديدة في الحياة التركية والعمارة المدنية التركية، وحياة الدور التركية، وحياة الحي التركي، وساحات المدينة التركية. إنها المرة الأولى التي يبدأ الناس فيها برؤية ما هو الميدان وما هي الساحة. ولعل تأثير إيران يظهر هنا أكثر من تأثير الغرب. كيف لا ينفذون لدينا الساحة الشهيرة في أصفهان؟

لا شك أن حيويةً وليونةً وواقعيةً بدأت تدخل الرسم التركي. ما المصدر؟ هل هو الرسم الغربي أم الإيراني؟ ليس ثمة دليل بين أيدينا يثبت أن هذا تم تعلمه من خبراء هذا العمل في القرن الثامن عشر. في هذه الحال، يمكن أن نفكر بأن هناك استلهاماً جديداً من رياح الشرق. ولكن الواضح أن أسلوب الباروك كان مؤثراً في الغرب خلال القرن الثامن عشر. فقد حل محل البذخ في واجهات الأبنية مظهر أكثر ليونة، وأقرب للأزهار والطبيعة، وأكثر دفئاً للناس. ولم يكن هذا المظهر يمتلك فخامة عصر سنان الكبير في القرن السادس عشر وتواضعه نهائياً. ولكن التغيير من أكثر متطلبات المجتمع براءة؛ حتى لو لم يكن موفقاً، ولا يمكن تجنبه. والعصر الزنبقي انعكاس لمرحلة جديدة في حياة الإمبراطورية العثمانية ومجتمعها.

العصر الزنبقي هو عصر التغيرات الكبرى في تاريخ الأدب العثماني ورسمه وتأريخه أيضاً. على الصعيد الأدبي مثلاً، المعروف أن لغة أقرب إلى الناس بُدئ باستخدامها في الأدب، كما تناول شعر تلك المرحلة العشق واللهو وحب الحياة، ووصل أحياناً إلى صراحة تجعل الوجوه تمتقع بالحمرة. ومن الممكن رؤية هذا في أبيات الشاعر الشهير وهبي. ولكن، من جهة أخرى ينبغي ألا ننسى أن أعمال الشيخ غالب الذي ترقّى إلى مرتبة شيخ بيت المولوية في غلاطة نشرت في هذا العصر أيضاً. وحال اللغة المصفّاة والمنقاة هنا، والمستوى العالي الذي وصلت إليه فلسفة التصوف يُدهشان المحلي والأجنبي، ويبقى الشيخ غالب مالئاً أفق الأدب التركي على مدى قرون كقارة مجهولة. لأنه لم يُملأ بعد. ويبدو أننا لم نسمُ روحياً إلى درجة فهمه بعد.

كانت لأدب هذا العصر خصوصية تناول حياة الناس اليومية، ونقل الأدب الجديد إلى الخلود. تُجمع الأحداث الاجتماعية المُعاشة يومياً - من جرائم إسطنبول إلى قصص عشقها، ومن حياة تجارها إلى أعمال إنكشارييها - بطريقة ما في القصص الشعبية. في الحقيقة، إن حكايات إسطنبول التي جمعها المرحوم رشاد أكرم في خمسينيات القرن العشرين، وعرَّف بها الناس، تعكس نظرة الناس إلى الحياة وطريقة حياتهم في القرن الثامن عشر. لم

يعد هناك تعصّب وحصانة. فهم مذنبون مثل سكان المدن الكبرى، يبحثون عن الجمال مثل سكان المدن الكبرى، ومعجبون بالاستهلاك والحياة المترفة مثل أولئك السكان أيضاً.



ساحة السلطان أحمد والمسلة

خضع القصر العثماني، أي قصر طوب قابِ لتغيير جمالي مهم في القرن الثامن عشر. ترك الخزف الإزنيكي الرائع العائد للقرنين السادس عشر والسابع عشر مكانه لفن جديد هو الرسوم الجدارية. وهذه تكون أحياناً نماذج محببة، وأحياناً نماذج فاشلة يمكن أن نسميها فناً هابطاً (kitsch).

ثمة مجتمع يتغيّر، ولا يمكن أن يقدّم نماذج ناجحة دائماً منذ لحظة تغيره. ولكن الحقيقة أن الناس والإداريين في القرن الثامن عشر تغيّروا. التغييرات بدأت في الجيش أيضاً. تدخل إلى الجيش مهن واختصاصات جديدة مثل الهندسة والطب والبيطرة. بسبب المدفعية الخفيفة تغيّر النظام العسكري. يمكن أن نقدم ثكنة السليمية الشهيرة التي أنشأها سليم الثالث مثالاً. إنها أفخم من قصر طوب قابِ وأكبر منه، وتعبّر عن إمبراطورية عسكرية، ومجتمع عسكري. من الصعب أن تجدوا نموذجاً أجمل منها في عصر الباروك داخل الإمبراطورية أو خارجها؛ لأنها ليست كبيرة فقط، بل جميلة أيضاً. ودبلوماسية القرن الثامن عشر تتغير أيضاً.

أنتم مضطرون للعيش مع العالم، ولمعرفة القواعد. صار يُرى في هذه

الإمبراطورية دبلوماسيون لم يعتد القدماء على رؤيتهم. واعتباراً من نهاية القرن الثامن عشر، فُتحَت سفارات دائمة في المدن الرئيسة؛ وعلى رأسها فيينا وباريس. ولوحظ في القرن الثامن عشر تطورٌ مهم في الأطراف العثمانية.

انعكس العصر الزنبقي على حياة الناس وسكنهم. لا يمكن رؤية أبنية جميلة في أي عصر كأبنية القرن الثامن عشر. بدأت المدن تستمر بحياتها المستقلة. دخل الإداريون المحليون ببعض النشاطات الخاصة، وأنشأوا أبنية جديدة في مدن البلقان ودمشق وحلب وطرابلس الغرب وطرابلس الشام.

ها هو جامع أحمد باشا الجزار في عكا. وها هو قصر العظم والخانات في دمشق، وها هي أبنية طرابلس الشام، وها هي قصور الأمراء الدروز في بيت الدين والمختارة، والتجديدات في حلب والشام، وأبنية آل قوطال خليل زادة... وفي أمكنة من الأناضول مثل يوظقاط هناك الجامع الذي بناه آل تشبان أوغلو، وحتى في قصباتٍ أصغر بكثير هناك أبنية تحظى بالإعجاب. إذا انتقلتم إلى روملي فبإمكانكم أن تروا آثاراً معمارية جديدة في مدن مثل موسكوبول، وسراي بوسنة، وفيدين، وفارنا، وهي تُجمّل كل من يانيا، وإشكودرا، وقاوالا. والإداريون المحليون يقومون بأكثر هذه الأعمال.

بدأت الأطراف العثمانية بتغيير حياتها ومتعها مع تغيّر عاصمتها. إذ صارت اللغة موجهة إلى الناس، ودخلت لغة الناس إلى الأدب الكلاسيكي. إنه عصر التغيير. ويمكن ملاحظة هذا في الكتب التركية التي كتبها المجريون مثل كاتب الرحلات يعقوب ناجي دي خرساني المعجب بجماليات اللغة التركية مما دفعه لتعلمها (كتب قاموس دليل المحادثة التركي اللاتيني)، والعلماء الكبار مثل فرانس مينينسكي (تضمن كتابه الشهير Thesaurus Orientalium Linguarum الألمانية والبولونية والإيطالية إضافة إلى التركية والفارسية والعربية، وما زال مستخدماً حتى الآن). تركية القرن الثامن عشر جميلة. علينا ألا ننسى هذا. وقد اكتسبت البلقان تحت تأثير الإمبراطورية وضمن بنيتها الثقافية هوية مختلفة. ويفهم هذا بشكل أفضل اليوم.

مدحت باشا والإدارة

لا شك أن مدحت باشا من أهم شخصيات مرحلة التنظيمات العثمانية. وفي الحقيقة، يجب تصنيفه ضمن الجيل الثاني لمرحلة التنظيمات. وكما نعلم جميعاً، إن قياديّي المجموعة الأولى بحكم أعمارهم ومواقعهم هم مصطفى رشيد باشا، وعلي باشا، وفؤاد باشا. أما جودت باشا ومدحت باشا فهما من الجيل الأصغر.

أهم صفة لمرحلة التنظيمات في التاريخ العثماني، أي الصفة التي تجعلها تضاهي ما قبلها وما بعدها، هي خصوصية مجموعة التنظيمات الأكثر أهمية بترك الخلافات الفكرية، والاختلاف في المواقف، وفرق المنبت الاجتماعي جانباً بغض النظر عن الخلف والسلف، والعمل بشكل جماعي. أولئك رجال دولة مهمون جداً.

لا بد من الاعتراف أنه لم يأتِ كادر نخبوي منسجم وقادر على إنجاز العمل قبل هذا التاريخ أو بعده. لم يحدث هذا لدى الاتحاد والترقي أيضاً. كانت أهم مشاكل الجمهورية مع الأسف هي نقص الكوادر بسبب الحروب. القائد العبقري في غالبية الأحيان يفتقد للكوادر التي تستطيع تنفيذ مشاريعه. كوادر عصر التنظيمات دون شك هم الناس الذين نشأوا وتطوروا من خلال الإصلاحات الإمبراطورية العثمانية التعليمية التي بدأت في القرن الثامن عشر، واستمرت إلى القرن التاسع عشر. وكما أنّ هناك أبناء أسر متعلمة بينهم، هناك أبناء مهنيين وأسر فقيرة مثل الصدر الأعظم الكبير محمد أمين باشا؛ ابن البواب، ومدحت باشا؛ ابن أسرة الطبقة المتوسطة الإسطنبولية، وجودت باشا؛ ابن أسرة تمتلك مزارع هائلة على طول مجرى طونا في بلغاريا اليوم.

ولد مدحت باشا (أحمد شفيق) عام 1822 في إسطنبول. ويُعرف بأنه ابن أسرة علماء مهاجرة من حوض طونا. انتسب إلى القلم (الديوان) في عمر مبكر. إحدى خصوصيات مجموعة التنظيمات هي أن أفرادها لم يخضعوا لتعليم منتظم (regular)، وتعلموا في قلم الباب العالي أكثر من تعلمهم في المدارس. عندما كان مدحت باشا يخدم متدرباً في الديوان لُقّبَ مدحت لكي يميّز عن أحمدين آخرين. ينسحب الأمر نفسه على أحمد جودت باشا، إذ أضيف لاسمه الاسم جودت لكي يميّز عن الآخرين. بنى مدحت الشاب نفسه بنفسه في الباب العالي. لا شك أنّ أمثالهما يأتون بالدرجة الثانية إلى جانب تيار الكبار أمثال محمد أمين علي باشا ورشيد

باشا.

وكان ضيا باشا أحد أعضاء هذا الفريق أيضاً. ميزة مدحت باشا هي أنه أبدى نجاحاً يفوق المعتاد في إدارة الولاية العثمانية. من النادر وجود والٍ كهذا. ولا غضاضة من القول إن مدحت باشا لم يكن أكبر الولاة في الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر فقط، بل أكبرهم في أوروبا كلها. والكثير من المصادر تتفق على هذا. أصلاً بلغت شهرته الآفاق.

هناك والٍ آخر ذاع صيته في أوروبا. إنه الدبلوماسي السيئ جداً إغناتيف (Ignatief) الذي أتى إلى الإمبراطورية العثمانية في ما بعد. عمل الجنرال إغناتيف محافظاً متفوقاً جداً في شرق سيبيريا، وحقق شهرة واسعة. بعد نجاح مدحت باشا الكبير في ولاية بلغاريا التي كان اسمها في ذلك الوقت ولاية طونا، استدعي إلى المركز ضمن تشكيلات الدولة مع الأسف، وعُين وزير شورى الدولة، وكانت هذه بداية تراجع حظه.

لم يستطع مدحت باشا إظهار بريق نجاحه في الوزارة والصدارة (رئاسة الوزراء) كما كان في الولاية. لم يساعده حظه؛ وهذا ما جعله يصدر قرارات خاطئة، ويدخل بتعقيدات خاطئة. فقد اختار الوقوف ضد زملائه الذين عمل معهم وحققوا معاً نجاحاً كبيراً في زمن ما. هكذا كانت علاقته مع أحمد جودت باشا. فقد أعدا معاً إصلاحات الولايات العثمانية الشهيرة في القرن التاسع عشر، وكتبا معاً نظام الولاية الداخلي عام 1864، ثم صار أحدهما حاكماً والثاني مُحاكماً في محكمة يلضظ. وكان قَدَرُ مدحت باشا أن ينتهي في الزنزانة

عام 1882.

ما زال موته موضع نقاش، ويُعتقد أن الباشا قد قُتل. لقد خُفف حكم الإعدام الصادر بحقه إلى سجن مؤبد بقرار عبد الحميد الثاني. كان غازي عثمان باشا الشهير على رأس الذين انتقدوا عقوبة المؤبد، حتى إنه قال: «حُكِمَ عليه بالإعدام، ويجب ألا يكون من حق أحد؛ حتى سلطان السلاطين تغيير الحكم إلى المؤبد». وفي الحقيقة، إن المؤرخ المشهور بتغيير المتعارف عليه من التاريخ يلماظ أوطونا يبرز هذه الصفحة كثيراً في كتبه.

من هو مدحت باشا؟ إنه أسطورة القرن الأخير، رجل دولة عظيم خلّف وراءه أعمالاً لا تحصى، وأنجز ما يعتبر مؤشرات تبين إلى اليوم الهيمنة التاريخية. اختار الجزء الشمالي من بلغاريا اليوم لتكون منطقة نموذجية عندما أعد النظام الداخلي للولاية عام 1864. وهذه المنطقة تضم ترنوفا وصوفيا وروستشوك وفارنا وفيدين تقريباً. كان مركز ولاية طونا هو

روستشوك اليوم. وهذه المدينة الواقعة على ضفة نهر طونا غنية منذ القِدَم بسبب التجارة النهرية. ولكن الأكيد أن المدينة نما حجمها ثلاثة أضعاف في فترة ولاية مدحت باشا. وأنشئ قصر الولاية الرائع بأسلوب النهضة الجديدة (renaissance neo)، وهو يشبه قصور الولاة في روسيا؛ لأنه مبنيّ بالطراز المعماري نفسه.

مثلت مدارسُ مدحت باشا التي ارتفعت في الفرات بعد بلغاريا ثم في دمشق بشكل متتابع نماذج معمارية لامعة. أثناء ولايته لطونا شق في هذه المنطقة ثلاثة آلاف كيلومتر طرقاً، وأكثر من ألف وأربعمائة جسر؛ رابطاً بلغاريا - أي طونا - في ما بينها. إثر حرب القرم عام 1853 هَجَّرَ الروسُ الشعبَ التركي المحلي من القرم والقوقاز. ولم يرتح المهاجرون المتعبون جداً إلا بفضل إنجازات مدحت باشا أثناء فترة ولايته.

تضاعف عدد سكان المسلمين في الولاية ثلاثة أضعاف. ازداد عدد السكان في قضاء مجيدية الذي بقي الآن ضمن الحدود الرومانية، وروستشوك وفارنا وطرنوفا وفيدين بسبب المهاجرين من روسيا، ودبت الحيوية في الزراعة. مدحت باشا هو الذي دمج صناديق المال من أجل دعم قوة استثمار الفلاح، وأنتج البنك الزراعي. غير هذا، فقد أنشأ صندوق الأمان ليخلّص الفلاح من الدين الباهظ والظلم الذي يعانيه على أيدي المرابين. وبهذا يكون مدحت باشا أول مستثمر ورائد في العمل المصرفي العام.

لقد فعل مدحت باشا شيئاً آخر أيضاً. فقد أسس في ولاية طونا شرطة سياسية سرية مثل المخابرات الروسية والشرطة المدنية النمساوية. وهكذا، كان مدحت باشا مؤسس الشرطة السرية في ولاية الإمبراطورية. ولا شك أن هذا لعب دوراً مهماً في أمن تلك المنطقة. وإلى جانب هذا، فتح أنوار المعرفة أمام مسيحيي بلغاريا بقدر ما فتحها أمام مسلميها بواسطة المدارس التي أسسها. المدارس الابتدائية الصبيان والمدارس الثانوية الرشدية التي أسسها مدحت باشا هي آثاره في المعارف. لم يكتفِ مدحت باشا بافتتاح المدارس؛ فقد كان ذلك المجتمع بحاجة إلى جريدة أيضاً.

أسس مدحت باشا مطبعة الولاية عام 1865، وبدأ باستصدار جريدة. كان عمل هذه المطبعة الأهم هو إصدار جريدة الولاية التركية - البلغارية باسم طونا (كانت تكتب ضونا). كانت طونا أول نماذج جرائد الولايات. (لا يمكن اعتبار جريدة الوقائع المصرية التي صدرت قبل هذا التاريخ ضمن هذا المعيار)، وهناك وثيقة تدل على صدور جريدة من هذا النوع قبلها

في إمارة سيصام ذات الحكم الذاتي في جزيرة سيصام. ولكن الجريدة لم تظهر إلى النور. بكل الأحوال، إن جريدة طونا كانت النموذج الأول، ولعبت دوراً مهماً في الصحافة البلغارية؛ على الرغم من أنها ليست صحيفة باللغة البلغارية. بدأت الجريدة تصدر مرتين في الأسبوع، واستمرت بالصدور دون انقطاع حتى حرب عام 1877 (1293هـ). غير هذا فقد طُبعت في مطبعة الولاية كتب من أجل السكان الأتراك والبلغار.

استمر مدحت باشا بإدارته الناجحة أثناء ولايته لبغداد أيضاً. في فترة ولايته، ضمت بغداد ولاية البصرة كلها ما عدا الموصل. وفي الحقيقة، ضم مدحت باشا الكويت إلى الإمبراطورية بمداخلته. لم يبق في حدود تعيين قاضٍ، بل اتفق مع آل الصباح وأشرف على الكويت. وأسس في بغداد أيضاً شيئاً شبيهاً بما أسسه في طونا؛ سكة حديد بين روتشوك وفارنا، وشركة شحن نهرية لتنافس التجارة النمساوية. الدخل التي حققته شركة الشحن التي أسسها على الفرات، وما حققه إدارياً وعسكرياً على درجة من الأهمية، ويستحقان المناقشة.

الذاهب إلى تلك الدول اليوم يرى خاتم العثمانيين بفضل ما بني في القرن التاسع عشر. يذكر شعب بلغاريا الذي اضطر للعيش سنين طويلة تحت إدارة لا تسره في لحظات ضيقه وتأزمه الثقافي والسياسي زمنَ مدحت باشا، وصارت هناك أقول مأثورة تَذْكُرُ ما أُنجز في عهد والينا العظيم حسب تعبيرهم. يقولون للولد الذي لا يذهب إلى المدرسة: «هكذا فعلنا في عهد الوالي مدحت باشا، فخسرنا». أو ينصحون الولد الذي لا يدرس دروسه: «بسبب المهملين لم نذهب إلى المدرسة في زمن مدحت باشا، ولم نتعلم». هذا يعني أنه كان من أهم الإداريين الذين أهّلتهم الإمبراطورية. من الممكن أنه لم يبدِ النجاح نفسه في الحياة السياسية المركزية، ومن الممكن أن يكون قد انجرف مع رياح أخرى، ولكن لا بد من إعطاء كل ذي حق حقه في حياة الدولة.

القرن التاسع عشر في الإمبراطورية العثمانية يعني تطوير الزراعة وتشجيع الصناعة وورش المهن. كانت أساليب الزراعة تتطور بفضل قروض الفلاحين. كيف ستتطور الصناعة؟ بدباغة الجلد في القرى. هل يكفي هذا العمل؟ لا. لهذا السبب، كانت العربات والحنطورات تساعد في النقل الزراعي، وتوجّب تطوير صناعة تستطيع استخدام الطرق التي شقت بطول ثلاثة آلاف كيلومتر. مصنع العربات الذي أنشئ ساعد على تحقيق هذا. وبفضل المهاجرين الذين أتوا بحالة يرثى لها، وأُسكنوا في الأناضول إثر كارثة

1292 - وهي الحرب الروسية بين عامي 1877-1878 - أوجدت هذه المهن إضافة إلى تطوير الزراعة، حتى إنه يجب ربط تطوير نقل العربات وحتى ورشات السكك الحديدية (كانت تسمى الجرّ) بمجيء أولئك المهاجرين إلى وطنهم الجديد.



نفي مدحت باشا

لم يكن مدحت باشا أكبر ولاة الإمبراطورية العثمانية فقط، بل أكبر ولاة القرن التاسع عشر أيضاً. لم يظهر في أي من المستعمرات الفرنسية أو الإنكليزية أو مقاطعاتها والٍ نشيط بعمله وعادل مثله. لقد مرّ بحياة الإمبراطورية العثمانية بصفته الإداري الذي حقق الوحدة الجغرافية للإمبراطورية بربطها بشبكة طرق. ينبغي على مؤرخي اليوم أن يتناولوا هذا الموضوع بأهمية، ويعطوه حقه.

هل كان مدحت باشا دستورياً كبيراً؟ لا. يبين حلمه الدستوري كبير المؤرخين الدستوريين أستاذنا المرحوم طارق ظافر طوناي. بعد مراجعة اللائحة المقترحة، قال إنها لا يمكن أن تكون نصاً دستورياً. هنا ثمة مثالية. قبل كل شيء، كان رجل حكومة لم يستطع الحيلولة دون الحرب الروسية عام 1877، ولم يحدد العلاقات الدولية. من غير الممكن القول إن مدحت باشا دبلوماسي، أو متابع للسياسة الدولية مقارنة برجال التنظيمات الدبلوماسيين الكبار أمثال مصطفى رشيد باشا ومحمد أمين علي باشا الذين تمكنوا من

كسب تأييد أوروبا والوقوف في وجه روسيا. ولكن، لا بد من القول إن لديه شرفاً وطنياً. فهو لم يقدّم تنازلات، وخيضت الحرب نتيجة لعدم تقديمه التنازلات. أصلاً لم يكن صدراً أعظمَ لديه سلطة كافية. لأنه لم يأتِ إلى هذا الموقع في ظرف سيطرة البيروقراطية، بل صار صدراً أعظمَ إثر انقلاب عسكري. لهذا السبب، يجب تناوله ضمن سياقين تاريخيين مختلفين؛ مدحت باشا وزير شورى الدولة والصدر الأعظم، ومدحت باشا الآمر الإداري الكبير في الإمبراطورية العثمانية وتاريخها من خلال عمله اللامع حين كان والياً في طونا وبغداد ودمشق.

الإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر

يمكننا القول إن الإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر لغزٌ مبهم؛ إنها لغز مبهم لأنه من غير الممكن القول إن الشريحة الواسعة من الشعب التركي التي قرأت التاريخ في المدارس، أو المثقفين الذين يعملون في مجالات أخرى، أو المؤرخين الأتراك زملاء المهنة يفهمون القرن الثامن عشر. نحن جميعاً نعاني من مشكلة عدم الإدراك هذا والمأزق. لا يمكن فهم تاريخ الإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر دون فهم العالم المتغير. لعل تغيّر رؤية الناس، وتغير الجماهير لا يبرزان أمام الأعين، ولكن تطور الأكاديميات العلمية والسياسة، والتقنيات يلفت الأنظار بقوة. حتى إنه يمكن وصف تلك السرعة بالمدوخة.

يجب أن يكون التصريح الشهير الذي قدمه أمانويل موسنيير من أكاديمة العلوم في باريس في ذاكرتنا جميعاً. فقد قال موسنيير: «أوروبا عالم متغير، وهذا التغيير ناجم عن التقدم في المعلومات والوعي، وأجزاء العالم الأخرى بنظر الأكاديمية في حالة تعطل وسكون». واضح تماماً أن أوروبا القرن الثامن عشر في حالة تباهٍ وغرور؛ وهذا الغرور لا يعتمد على أسطورة أو دين أو إنجازات ماضية، بل على أساس علمي؛ وإن كان ذلك بالكلام فقط.

أوروبا قارة نشيطة وذكية بدأت تتحرك، وتقدم أرقى الفنون. حتى إن فلاسفة التنوير الذين ينقدون النظام الاجتماعي والسياسي الأوروبي في القرن الثامن عشر، ويبدون عدم إعجابهم به وعلى رأسهم فولتير يرون أن مجتمعهم وصل إلى قمة الإنسانية.

مثلاً عندما ينتقد فولتير ويدعو إلى ضرورة تغيير الملكية الفرنسية، وفرنسا التي لا يعجبها النظام الدستوري فهو في الحقيقة يحيي القرن الثامن عشر باعتباره الذروة التي وصلت إليها الحضارة والفنون. يطرح هذا بشكل واضح في كتابه الموسوم عصر لويس الرابع عشر. حتى إنه في هذا العمل اخترع اصطلاح الفلسفة التاريخية، وطرح قواعد التطور الاجتماعي واتجاهاته. مرّت الحضارة من صفحات اليونان وروما وعصر النهضة لتصل إلى مرحلة فرنسا لويس الرابع عشر. ستتأثر الدنيا والأمم بهذا. كم يبدو رأياً مسيحياً! وكما ترى المسيحية أنها خاتمة الأديان، والمسيح خاتم الرسل، وتبليغه خاتم الرسالات، يرى من خلال هذا المثال الرجل علماني الفكر (laic) أن الحضارة العلمانية الفاعلة ستكون مثالاً يُحتذى، وهي آخر ما تم

التوصل إليه.

ولكن الأوروبيين سيدهشون بعد قرن عندما يرون اليابان المتطورة من كل الجوانب، وتركيا التي طرحت نفسها كمتغيرة في العالم الإسلامي، وروسيا التي لم يكونوا على علم بالتطور الذي تحققه. على سبيل المثال، بدأ الأدب والرياضيات وحتى الموسيقى الروسية بتجاوز أوروبا بشكل أكيد.

نعتقد أن سوط الواقع قد ألهب ظهر الإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر. فقد واجهت الإمبراطورية عام 1699 نظامَ اتفاقٍ مختلفاً جداً عن السابق بعد حروب النمسا المستمرة طويلاً، أي بعد الأعوام الستة عشر التي تلت هزيمة عام 1699. هذه المرة، لم يعد هناك عهد تفرضه إمبراطورية إسلامية كبرى، بل معاهدة تتم بين طرفين متساويين. لا يمكن اعتبار أن الإمبراطورية العثمانية قد جلست إلى الطاولة كندٍ لأنها جلست إثر هزيمة، ووفق مفهوم القانون الدولي الجديد. لقد رأى الناس أن نظامنا العسكري لم يعد نظاماً متكاملاً وقوياً لا غبار عليه كما كان سابقاً. في هذه الحال يجب إعادة بنائه.

بدأت الإصلاحات الأولى في الجيش. لا يمكن أن تُجرى الإصلاحات في الجيش وفق مفهوم قديم. لأن الجيوش التي تقف في مواجهة الجيش العثماني لم تعد جيوشاً أوروبية قديمة، فلقد تغير نظامها المدفعي. دعكم من تغيير الجنود، لقد تغيّر حتى نظام الجراحين والأطباء، وتغير نظام الفرسان. وبدأ طبيب الخيول الذي نسميه البيطري يواكب التطور إلى أقصى الحدود. وبدأت الآليات المالية والإدارية التي تغذي ديمومة الجيش تتغير.

لم يعد الضابط ينشأ عبر التدريب في الجيش أو بتنشئته نفسه بنفسه كما كان الحال سابقاً. فمثلما كان الجيشُ يُخضِع أنفاره لتدريبٍ جماعي يومي، ينبغي أن يُخضع ضباطه أيضاً لتدريب جماعي. وكان الجيش العثماني خبيراً بهذا الأمر. هذا يعني نشوء طبقة ضباط محترفين؛ وهذا عمل أكاديمي. وخطا الجيش العثماني خطوة بهذا الاتجاه.

الكلية الأولى التي تم إنشاؤها هي كلية الهندسة البرية السلطانية، والثانية هي كلية الهندسة البحرية السلطانية. وهكذا، تشكلت مرحلة التأسيس لكليات الحرب البرية والبحرية اليوم. ولكن المهم هنا هو الهندسة. إذ بدأت اللغة الأجنبية التي تستجلبها الهندسة، وما تجلبه هذه اللغة من مواضيع بالانتشار في حياة الإمبراطورية العثمانية.



المراسم التي تسبق انطلاق موكب الصرة

لدى مثقفي القرن الثامن عشر العثماني فضول شديد. كان بينهم من تعلم الإيطالية والفرنسية وحتى اللاتينية واليونانية. وبدأ تاريخ العالم وأوروبا يجذبهم. ما هي أوروبا هذه؟ بداية، ظهرت إنكلترا باعتبارها قوة جديدة. المملكة التي لم يكن أحد في أوروبا يأخذها مأخذ الجد أزالت الأسطول الإسباني في عهد الملكة إليزابيث قبل قرن، وتغلبت على إسبانيا إحدى أقوى دول أوروبا. في الحقيقة، هناك إنكلترا التي لم تنتبه إليها كثيراً مملكة لامعة مثل فرنسا، ودولة مثل ألمانيا والنمسا تحت حكم آل هابسبورع. ولكن التعليم الإنكليزي بدأ يلفت الأنظار. مثلاً، كان مثقفو الجزء البروتستانتي من المجر الكاثوليكية - أي جزء أردل الباقي ضمن رومانيا اليوم - ورجال دينه يدرسون في إنكلترا. ونشط المبشرون الاسكتلنديون في كثير من المناطق الأوروبية والآسيوية. ولكن إنكلترا غدت عالماً مختلفاً في القرن الثامن عشر. كانت على رأس هذه الدولة في مطلع القرن الثامن عشر الملكة الأم. حملت سبع عشرة مرة، ولم ترزق بولد. عندما ماتت، انتقل العرش إلى دوق هانوفر جورج قريبها الأقرب، وهذا جلس على عرش إنكلترا باسم جورج الأول، ولكنه لم يجلس في إنكلترا كثيراً. أولاً لم يكن يتقن الإنكليزية، وثانياً لأنه كان من الاجتماعات مع الوزراء. لذا، بدأ يترك الاجتماعات للورد الأول. وسيتحول هذا المنصب مع الزمن إلى رئيس

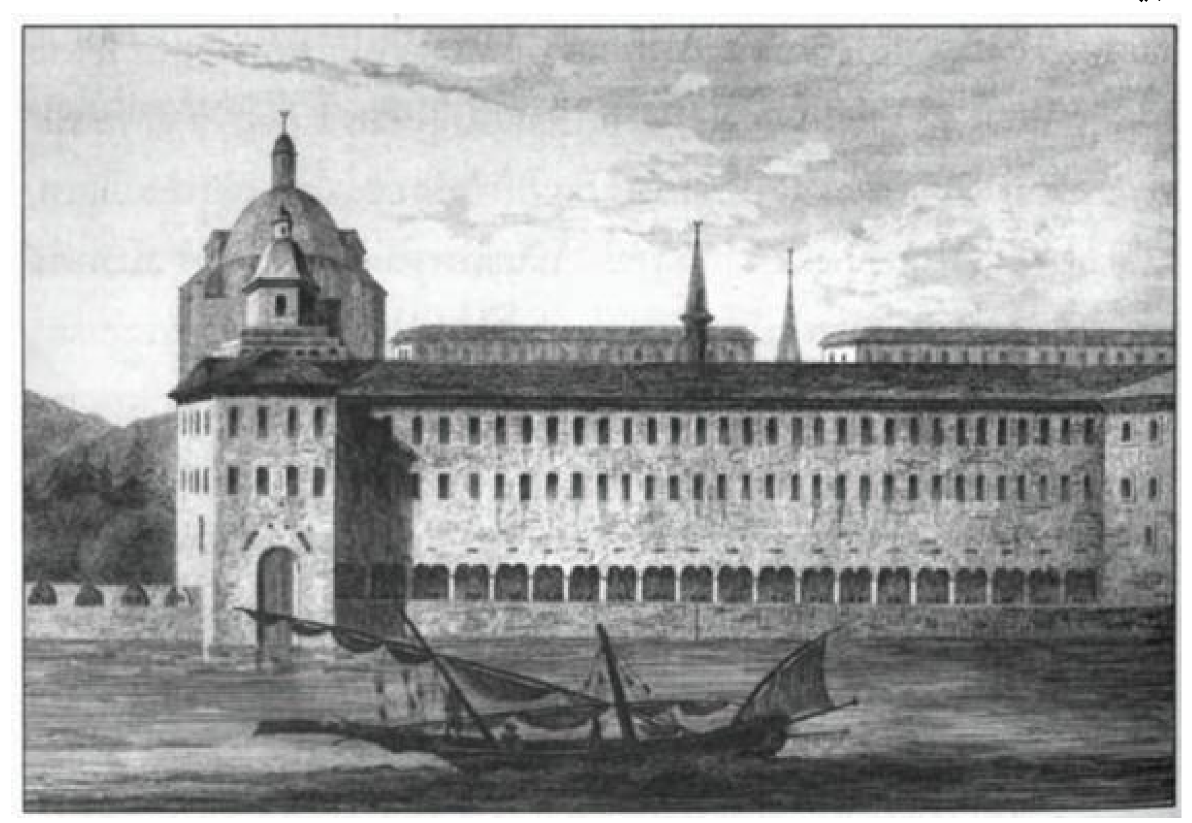
الحكومة (minister prime). وكان جورج الثاني ابن جورج يعاني من المشكلة نفسها. لا يمكن القول إنه أحب إنكلترا والإنكليزية والإنكليز كثيراً. وهذا كان يقضي وقته في هانوفر الألمانية. بدأ النظام الإنكليزي يتغير في عهد هذين الملكين.

كان الكثيرون يقدمون الرؤية الآتية: «وجد النظام المتغير الرجال المناسبين له. ذهبوا، وقالوا لدوق هانوفر جورج الأول: «أنت الملك. وهذا اعتقد أنه ملك». في الحقيقة، إن ما نسميه تسوية بعد تسوية (settlement after settlement) غيّر النظام الدستوري الإنكليزي تماماً. وترسخ تدريجياً مبدأ استقلال القضاء وسيادة القانون في إنكلترا بفضل النظام الذي منح القضاة استقلالية وحصانة أمام الأسرة المالكة والحكومة؛ النظام الذي لم يستقر في الثورة الفرنسية إثر سفك دم الكثيرين بعد قرن بدأ بالاستقرار في إنكلترا. كان الأمر الذي يوليه الأرستقراطيون الإنكليز والطبقة العليا الاهتمام الأكبر هو الحقوق. قال شرقي أتى بزيارة بعد قرن: «إنهم يجلسون ويكتبون القوانين على عكسنا؛ قوانيننا جاءت من عند الله». لا يحمل قوله هذا إعجاباً ولا نقداً. إنه يقدّم وصفاً بسيطاً للنظام الإنكليزي. القانون يعني الحقوق. وهذه قضية تقليد في إنكلترا، ولا يمكن للكنيسة أو التاج أن يتدخل بها.

كان التركيز على الاتجاهات العملية لقوانين التقاليد أكبر من نشر فلسفة الحقوق. كانت الزراعة على وشك مواجهة مشاكل كبيرة في الدولة التي تتطور فيها سيادة القانون والضمان. كان اللوردات ينفون الفلاحين من الأرض بدلاً من تركهم يزرعون بعض النباتات والحبوب من أجل إطعام أنفسهم، ويجبرون بعضهم على تربية المواشي وإنتاج الصوف، وخاصة الصوف الذي يجلب نقوداً كثيرةً، وسيحقق في ما بعد انفجاراً في صناعة النسيج الإنكليزية. كانوا يحيطون كل الأمكنة بالأسوِجة بإجراء الحركة المقيدة (movement enclosure). تجمّعَ المطرودون من القرى ولم يموتوا على الطرق جوعاً في المراكز الصناعية ليخوضوا كفاحاً. وهنا، تطور مجالان في إنكلترا. الأول هو النسيج، والثاني هو قطع أشجار الغابات من أجل تصنيع فلزات الحديد المستخرجة من المناجم. فهنا أنشئ أول جسر حديدي. ومدينة عمال المناجم النامية حول ذلك الجسر أخذت اسم جسر الحديد (Bridge Iron). وكان ذاك الجسر جسراً حديدياً حقيقياً.

يُتوقع أن عدد سكان الجزر البريطانية بلغ في مطلع القرن الثامن عشر ستة ملايين نسمة. وارتفع إلى عشرة ملايين ونصف المليون في مطلع

القرن التاسع عشر. بالطبع لا يمكن القول إن السكان المتضاعف عدهم ضعفين تقريباً كانوا مرفهين وأحراراً ومتعلمين كثيراً. ولكن، بقدر ما كان الشعب جاهلاً بقدر ما كانت النخبة المتعلمة على درجة عالية من التعليم. لا شك أن الأرستقراطيين الإنكليز والمتعلمين منهم كانوا أكثر سكان أوروبا تلويناً، ويفتحون العالم بعلمهم. ولكن المنتجات الزراعية لم تزد سوى خمسين بالمائة مقابل زيادة السكان إلى الضعفين. حسن، هل سيبقى هؤلاء الناس جياعاً؟



ثكنة طوبهانة

ليست ثمة مشكلة... فالتجارة البحرية المتضاعفة أربعة أضعاف، وإنتاج المصانع المتضاعف خمسة أضعاف يؤمّنان الغنى لإنكلترا. يجب أن يجلب لهم الطعام من الخارج. أين هو هذا الخارج؟ الإمبراطورية العثمانية. كل فرمانات تلك المرحلة صدرت لمكافحة تجارة التهريب. كان الذين يجلبون العنب من الجزر على متن السفن، والذين ينقلون الحبوب من دوبروجا، والجلد من المكان الفلاني يؤمرون بعدم بيع البضائع للأجانب. ولكن، لم تكن باليد حيلة. لم تكن النمسا جائعة بعد إلى جانب إنكلترا. وكانت هناك صناعة نسيج وملابس وجلد تنمو. وكانت تؤمّن حاجياتها من البلقان. كانت هذه تجارة ممنوعة. كانت المواد المشحونة مواد استراتيجية يمنع الاتجار بها.

ولكن، من يردّ؟ بدأت منطقة البلقان بالنمو خلال فترة قصيرة. وظهرت طبقة تجار اغتنت في بلغاريا بلد الرعاة والمزارعين، وفي صربيا الفقيرة. ظهرت أمكنة اغتنت من الحبوب وإنتاج الجلد مثل موسكوبول (فوسكوبوجة)، وفيليبة، وغابروفا، وحتى إن هناك مناطق تحولت إلى مراكز للنسيج. نمت المدن، وفُتحت مدارس ودور أيتام. بدأت الأديرة تُطعم بشكل أفضل، وانتشرت هذه الأديرة من بلغاريا إلى اليونان ومروراً بآيناروظ المجاورة لسلانيك. في دير هيلاندار الذي يعيش فيه الرهبان البلغار في مدينة آيناروظ كتب بايسيج هيلاندرسكي الذي يعتبر منظّر القومية البلغارية أول تاريخ لبلغاريا عام 1762. يقول في كتاب التاريخ ذاك: «أيها البلغار! استفيقوا، وتنبّهوا، وافهموا ماضيكم العظيم».

يبدو أن القومية البلغارية بدأت تنتشر بين صفوف أعضاء الكنيسة مقابل القومية اليونانية الهيلينية التي كانت تنمو منذ عصر النهضة. وتعلّم أغنياء البلغار مع طبقات الشعب التي لا تعرف الكثير عن الذات القومية وتاريخها على مدى قرن القومية البلغارية وتطوّرت بينهم.

وسّعت النمسا تجارتها في البحر المتوسط بعد نزولها إليه وإلى الأدرياتيك إثر حروب تركيا، وأسست موانئ في أمكنة مثل تريستة وريجيكا. ووصل الأمر إلى أن سكان دوقية توسكانا من التبعية النمساوية أقاموا في مدن مثل حلب ودمشق وطرابلس الشام وطرابلس الغرب، وطوروا شبكة تجارية نمساوية في الإمبراطورية العثمانية.

توازنات الدول المتغيرة في أوروبا القرن الثامن عشر

تغير عالم البحر المتوسط وتوازن الدول الأوروبية كثيراً في القرن الثامن عشر. إثر ثورة الفتح، وقبل التراجع بين عامي 1683-1699 ضم الأتراك المنطقة التي نسميها إمبراطورية النمسا وألمانيا والمجر اليوم وإردال وسلوفاكيا والقسم الممتد حتى الأدرياتيك إلى حدودهم. وهنا نرى أن الصناعة قد تطورت. فقد أسس المستثمرون القادمون من هولندا وألمانيا وإنكلترا صناعات، ومجالات صناعية جديدة، ودخلت النمسا تجارة البحر المتوسط. وهناك المزيد، فقد انتقلت الدوقية الكبرى توسكانا إليها عن طريق الوراثة.

دوقية توسكانا الكبرى تعني فن فلورنسا الذي نعرفه جميعاً بدقته وجماله وبهائه، ونسيجها وطبقة مستثمريها وتجارها. لنتصور أن أولئك كانوا من التبعية النمساوية. الغنى الأكبر في الحياة الاقتصادية هو امتلاك العمل الخبير والاستثمار الذي يجلب ربحاً أكثر.

لقد أبرمت النمسا اتفاقية سير السفن - أي اتفاقية التجارة والمواصلات البحرية - عام 1727 من أجل الحد من القرصنة. وبالإضافة إلى تشكيلها شبكة قنصليات، انفتحت بالتجارة على ما يعرف باسم بلاد المغرب؛ وهي الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وما نسميه اليوم ليبيا؛ إضافة إلى شرق المتوسط. قبل التوصل إلى هذه الاتفاقيات كانت القرصنة نشاطاً رسمياً يتم بدعم من الدولة. هذا يعني أن النمسا انفتحت على تجارة البحر المتوسط اعتباراً من عام 1727.

من جهة أخرى، أُسست روابط تجارية مع بلغاريا ومقدونيا، أي حوض طونا كله، ومع مقاطعة إفلاك أيضاً. تطوّرت الحياة الاقتصادية في بلغاريا بفضل صناعة اللباد ومواد النسيج الخام، كما تطوّرت مجالات مثل دباغة الجلد. وصل المؤرخون البلغار إلى تسمية القرن الثامن عشر بعصر النهضة الخاص بهم؛ وإن حمل هذا القليل من المبالغة. في الحقيقة، تطورت الحياة في المدن، وتشكلت مزارع في المناطق الريفية. الغريب جداً أن هناك إعادة بناء سياسية جديدة فرضها هذا الغنى وهذه المزارع.

مثلاً ظهر آل بازاونت أوغلو في فيدين. غالبية أولئك الإقطاعيين جنود أو إداريون عثمانيون سابقون. كانت هناك إدارة تركية قديمة. ونشأ هناك نظام جديد أسسه الذين وضعوا أيديهم على إدارة الولاية أو اللواء باعتبارهم متسلمين. وهؤلاء ظهروا من أوساط قادة مقاتلي البحرية أو

الإنكشاريين الذين نسميهم طبقة الخدمة إلى جانب الولاة أو سادة السناجق في الإدارة العثمانية. في أغلب الأحيان، نقرأ عن هذا في تاريخ تركيا حيث يُذكر أنهم منفلتون. ولكن هذا ليس صحيحاً.

اهتز نظام الأمن والدفاع في الدولة بعد حصار فيينا. كان تدخلُ المركز من أجل ملء هذا الفراغ إما متأخراً أو غير خبير. ظهر القادة المحليون بصفتهم متسلمين قادمين من طبقة أعيان بحسب التعبير الإنكليزي « protector custody/ حماة الولاية». ووَضَعَ عددٌ من مأموري الباشاوات السابقين، والخارجين من الحرس، ومن نسميهم سياسيين محليين مهرة أيديهم على الإدارة المحلية. أعداد تلك العائلات كبيرة. عائلة « at ağası /آغا الخيل» صارت في سورية عائلة أتاسي الشهيرة. حتى إن آل سرسق المسيحيين خرجوا من مرسين واشتروا مساحة كبيرة من الأرض في جبل لبنان حيث المناطق النامية، واغتنوا بالتجارة، واتخذوا مكاناً لهم في تاريخ البلد.

في ما بعد، وفي عهد محمود الثاني، ظهر باشا يانيا تبة دلان - وهذا شاب ذهب من الأناضول - الذي جمع الألبان والروم والقوى التركية المحلية، وأعلن نفسه حاكماً على يانيا وما حولها. كيف حدث هذا؟ هل بقوة التسلط فقط؟ لا. أولاً، بُسِط الأمن في مكان ما؛ لأن أهم شيء بالنسبة إلى الناس هو العيش بأمان. ثانياً، فُرضت ضريبة. لعل تلك الضرائب ليست خفيفة، ولكنها محددة؛ كل شخص يعرف ما يدفعه وسيدفعه. ثالثاً، نُفّذت فعاليات الشؤون البلدية من طرق وجسور. وأُكمِل ما أهملته الدولة المركزية طويلاً. كما تمّت تلبية حاجات المنطقة من جامع، ومأوى للمحتاجين، وإصلاح للمدرسة الدينية المهلهلة، ونفقات الدراويش هناك وغير ذلك. ولم ينفذ هذا من أجل المسلمين فقط، بل المسيحيين أيضاً؛ فصارت أديرتهم تؤمّن وتحترم مقابرهم، حتى إنه تمّت تلبية بعض حاجات الصيانة لأمكنتهم. ونتيجة لكل هذه الأمور، برزت تطورات جديدة للانقطاع عن المركز في روملي والهرب منه، ومما لا شك فيه أن هذه الأمور كلها ستنتهي في عهد محمود الثاني.

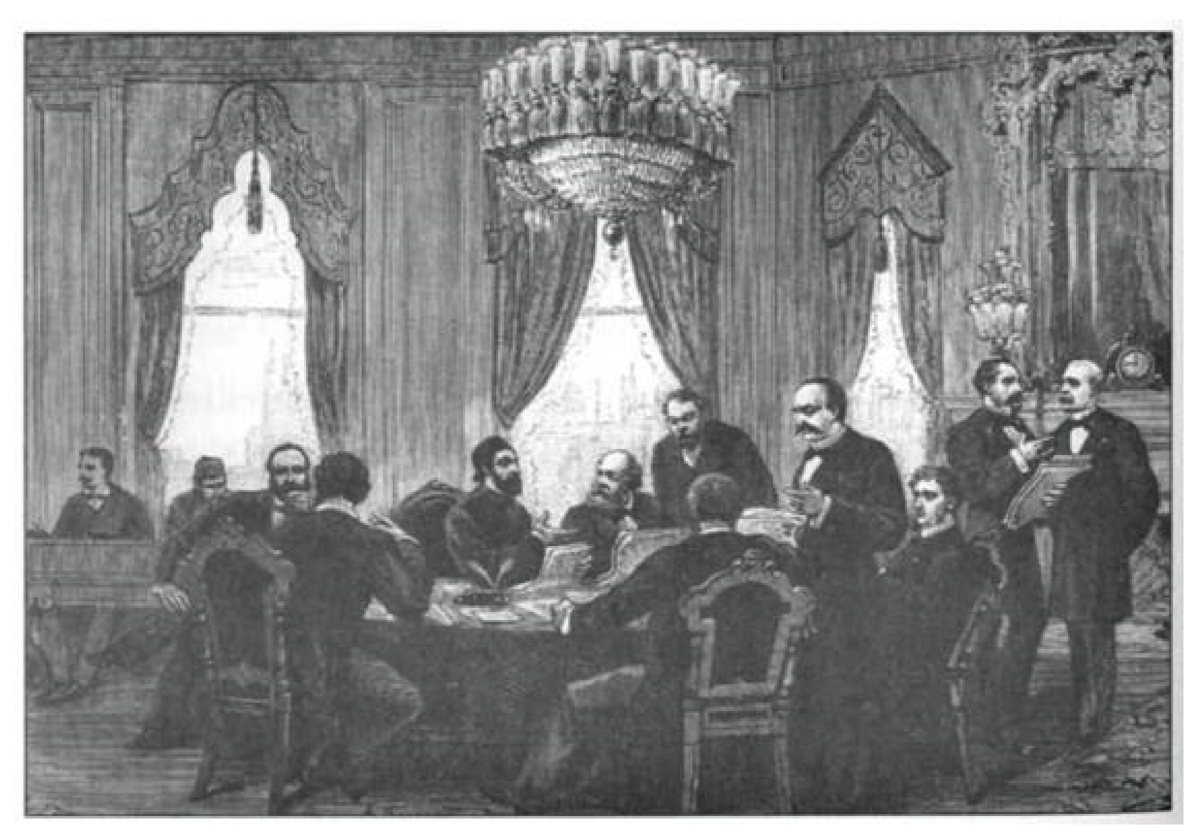
ولكن هذه التطورات مهمة جداً بالنسبة للقرن الثامن عشر. الأكثر من هذا أنه تمت الحيلولة دون تحرك جامعي الضرائب باستقلالية. ودُخلَت مرحلة فيها نوع من الوضوح المالي. ظهر في القرن السابع عشر في فرنسا، وفي عهد الكاردينال ريتشليو نوع من المركزية المالية، وتم التخطيط لميزانية أولية. حدث في الدولة العثمانية تطور مشابه لهذا؛ وهذا تغيير مهم في المالية العثمانية. لم تُعرف ماهيته بالضبط. ولكن، لا بد من القول إنه

بفضل أبحاث أستاذنا الكبير محمد غنتش والزميلين ياووظ جزار ومراد تشيزاقتشا يُسلط الضوء على هذه المرحلة المالية.

تغيّرت بنية المالية السابقة للإمبراطورية، وحلّ في القرن التاسع عشر نوعٌ من المركزية العدمية المالية. رُمِّم الانقطاع عن المركز، ثم بدأت مرحلة المركزية على الصعيد المالي. طبعاً استمر هذا طويلاً، حتى إن تطوره مستمر إلى اليوم. ولم يُدخل بعد بمركزة المالية التركية، وتحديد أسس التكليف الضريبي، وجهات هذا التكليف، وإيجاد استمرارية وثبات لجباية الضرائب بشكل منتظم.

من جهة أخرى، دخل البلد في تجارة البحر المتوسط بالمواد الخام وشبه المصنعة. فالملح الصخري خضع لنوع من التنظيف والتصنيع ثم صدر. وعلى الرغم من منع تصدير بعض المواد الاستراتيجية إلا أن أحداً لم يلتزم بهذا. لا شك أن الجزر البريطانية التي بقي إنتاجها من الغذاء ثابتاً على الرغم من ازدياد عدد سكانها إلى الضعفين أمّنت حبوبها وثمارها وعيشها من هنا. وهذا يمكن سحبه على هولندا وفرنسا ولكن بشكل مختلف.

بالطبع يلفت هؤلاء المحليون المغتنون من تجارة التهريب النظر. ويلاحظ هذا الوضع في ولايات الإمبراطورية كلها تقريباً. ولكن هناك من أرسل إلى الغرب مواد شبه مصنعة، فاعتنت بلغاريا بإنتاج اللباد، وصُدِّرت إفلاك الأخشاب. ونُسج الصوف في صربيا، وصُدِّر بالطريقة نفسها. وهذا ما ينسحب على الأناضول. لم يعد يُصدر قماشٌ صوفي ناعم فقط، بل الصوف الناعم أيضاً. وكان يُنقل من شواطئ كل من البحر الأسود والمتوسط. وظهرت مراكز لوُرَش نسج الحرير في جبل لبنان. وظهر إيطاليون من التبعية النمساوية في حلب ودمشق. ماذا فعل أولئك الأشخاص؟ جمعوا المصنوعات، وذهبوا. هناك طبقة من محاربي البحرية اغتنت في إزمير. غالبية أولئك من أصول إيطالية وفرنسية وهولندية. في البداية، كانوا يتحدثون اللغة الإيطالية في ما بينهم، ثم انتقلوا إلى الفرنسية. بدأ روم جزر إيجة بترك جزرهم الفقيرة، والهجرة إلى هذه المنطقة الغنية.



جلسة من مؤتمر إسطنبول

أي إن سكان منطقة إيجة الهيلينيين ليسوا من عهد الإسكندر الكبير وبيرقليس كما يعتقد البعض، بل إنهم قروية جزر إيجة التي نسميها الجزر اليونانية اليوم النشيطون والطموحون الذين هاجروا مباشرة إلى هنا، واغتنوا بفضل الأرض الخصبة التي جذبتهم. كانت تلك هجرة داخلية. جلب أولئك المهاجرون معهم العادات والقومية اليونانية، وهيلينيو إزمير ليسوا كهيلينيي إسطنبول، إذا كانوا أشد تعصباً قومياً...

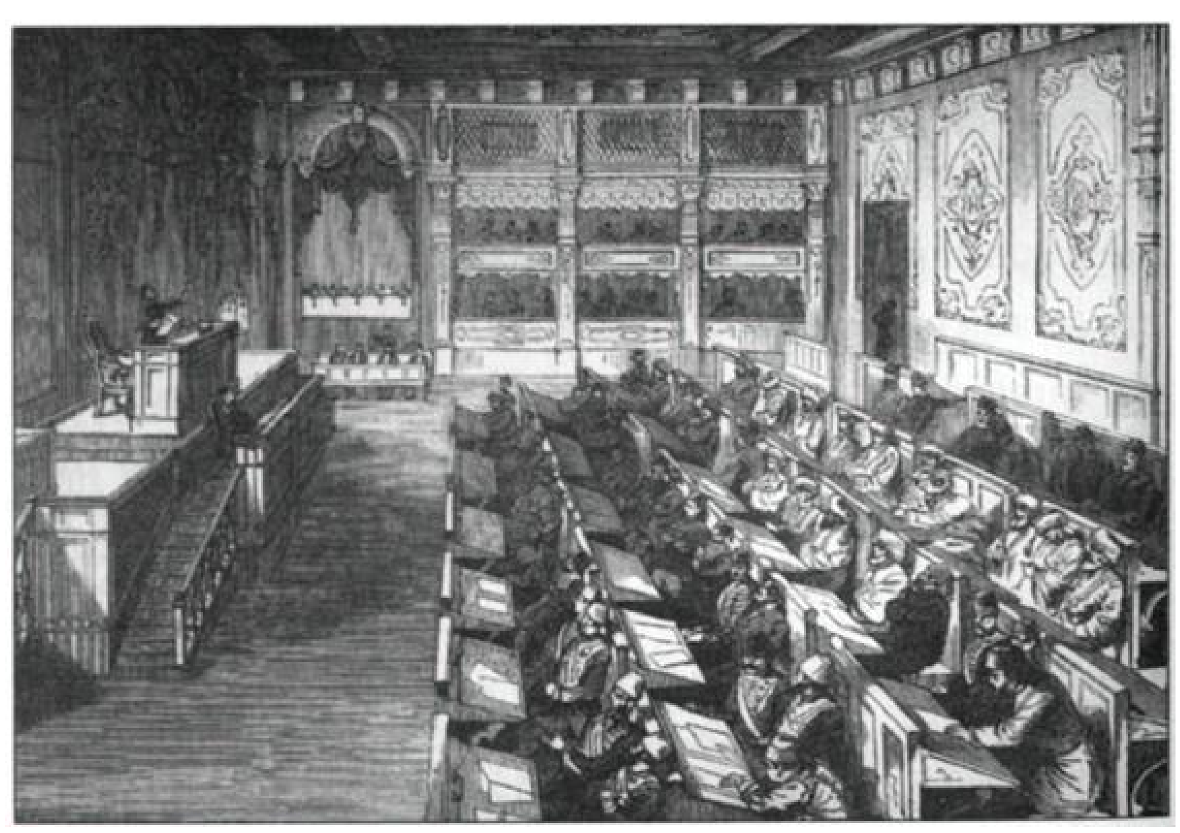
كانت تلك هجرة داخلية في الإمبراطورية، ولكنها لم تكن مشكلة بالنسبة للإدارة. فقد بدأت مراكز جديدة تظهر مع هذا الغنى، وبدأ هذا الغنى المحلي يغذي القوى المحلية في القرن الثامن عشر. وبدأت بعض العائلات تلفت الأنظار في كل مكان: قوطال خليل زادة في الموصل، وأتاسي في سورية، وبزوانت أوغلو في تراكيا. وبدأت أسر حاكمة محلية تظهر أيضاً. وقد وصل الأمر إلى درجة أن أحد الأعيان المدعو مصطفى باشا علم دار جمع حوله جيوش بعض الأعيان الآخرين، وساروا إلى إسطنبول لإسقاط مصطفى الرابع دعماً لسليم الثالث. وبينما كانت القضية إسقاط مصطفى الرابع، وإعادة العرش إلى سليم الثالث، قَتَلَ مصطفى الرابع ابن عمه «سليم» الثالث، وأنقذ الأمير محمود بقدرة قادر نتيجة دفاع نساء الحرم عنه عندما كان مصطفى الثالث على وشك قتله، وجَلَسَ على العرش بصفته

آخر ورثة آل عثمان باسم محمود الثاني.

يطرق بعض دستوريينا باب التشبيهات الساذجة فيقارنون حادثة Carta Magna في إنكلترا عام 1215 مع اتفاق السند عام 1809. ومع أنه اتفاق شبيه بالاتفاقات الكثيرة التي عقدت بين روملي والمركز بشكل شفهي أو كتابي في مطلع القرن التاسع عشر، ولكن السكين وصلت إلى العظم. لا يمكن للعثمانيين أن يوافقوا على هذا النوع من الإدارة المحلية. وقيل على مدى سنوات طويلة إن «محمود» الثاني قد أزال السند من الأرشيف، ولكن الأستاذ الدكتور علي آق يلضظ نشر نص السند الكامل في كتابه الموسوم: البيروقراطية العثمانية والتحديث. ويرد هذا النص في كتاب التاريخ لجودت باشا أيضاً. بعد هذه الحادثة، غُض الطرف عن القضاء على مصطفى باشا علم دار بتمرد إنكشاري، وبعد أن انتهى هذا الأمر، هُوجم الإنكشاريون، وقضي على ثكنتهم. وبفضل سلسلة من العمليات العسكرية المدهشة في الأناضول استسلم عدد كبير من الأعيان أمثال تشابان أوغلو في يوظغاط، وبزوانت أوغلو، وتبة دلانلي في روملي. الرجل الوحيد الذي لم يستسلم هو محمد علي باشا؛ وهو من جذور أناضولية على الأغلب، ولُقِّب خطأ قاوالالي نسبة إلى المكان الذي لجأ إليه في ما بعد. وجلس على رأس بلد غني تنظيمياً مثل مصر، وأصبح والياً مشاكساً.

ما هو عالم القرن الثامن عشر هذا؟ في عالم القرن الثامن عشر، أكمل بلد مثل إيطاليا دوره التاريخي منذ زمن. وهذه حقيقة: التقدم التركي قضى على هيمنة البندقية وجنوة. تجاوزت الإمبراطورية التي أسسها حاكم العالم السلطان محمد الفاتح حدود البلقان خلال فترة قصيرة، وشملت البوسنة، وقفزت إلى رومانيا وإفلاك وباغدان. ومن جهة أخرى، أزال إمبراطورية بونتوس، وسيطر على القرم مؤسساً لحاكميته على البحر الأسود، وبعدها تلقت سلطة البندقية وجنوة في البحر المتوسط ضربات موجعة بفتح القانوني لرودوس.

أكملت الجمهوريات الإيطالية دورتها العمرية بسقوط قبرص في القرن السادس عشر، وأخذ كريت من البندقية في القرن السابع عشر. لم يبق من تلك الدول القديمة اللامعة في القرن السادس عشر - أي لم يبق من طوسكانا وجنوة والبندقية - إلا أسماؤها وفنها وثقافتها. وتفرق الناس الذين لم يستطيعوا إيجاد الخبز في وطنهم داخل أوروبا. كان جياكومو - كازانوفا الذي نعرفه كلنا بشبقه للنساء - أمين مكتبة في قصر دوق في بوهيميا.



البرلمان العثماني

مهما كان المؤلف الموسيقي الإيطالي في القرن الثامن عشر مشهوراً فإنه سيحصّل لقمة عيشه من وسط أوروبا؛ من فيينا وليس من وطنه. في الحقيقة، إن حياة موزار لم تكن طافحة بالمعاصي ومستحقة للذم كما عرضه فيلم «أمادِيوس»، بل كان واحداً من المهرة الذين جعلوا من فيينا ما هي عليه. يسلّم مؤرخو الموسيقى بأن فيينا غدت مركزاً للموسيقى بفضل مهرة إيطاليين أمثاله. مثلاً لم يأتِ بتهوفن إلى فيينا إلا بعد أن غدت على ما هي عليه، ولم يكن ممن ساهموا بوصولها إلى ما وصلت إليه. لم تكن إسبانيا أيضاً إسبانيا القديمة في ذلك العصر، بل إمبراطورية منهارة متخلفة على البحر المتوسط. وكانت بخصوصيتها هذه على توازٍ مع الإمبراطورية العثمانية.

لم تستطع إيران الوقوف من جديد في القرن الثامن عشر إثر الحروب الصفوية بين السلطان سليم الجبار والشاه إسماعيل. وكان السبب الرئيس وراء ذلك عدم تجاوزها البنية المركزية العسكرية والبيروقراطية. وفي عهد نادر شاه كبير الأسرة المالكة الأفشارية امتدت الإمبراطورية إلى أفغانستان والهند، وحتى إنه ساد هناك لفترة قصيرة. أحد رموز هذه الإمبراطورية هو الأثر الجميل الموجود في قصر طوب قابِ، والمعرّف عنه على أنه عرش الشاه إسماعيل. ولكن ذاك العرش الذي سلب من الهند

كغنيمة، ثم أرسل إلى العرش العثماني كهدية دبلوماسية لا علاقة له نهائياً بالشاه إسماعيل. إيران القرن الثامن عشر مزيج من الهند وإيران. وكانت في قمة الفن. وكانت في زمن وصل فيه عدد الشعراء إلى الذروة. ولكنها لم تعد بقوتها السابقة. غير هذا، لديها مظاهر عدم التواؤم مع العالم المعاصر كله.

أما تركيا العثمانية فعلى العكس من هذا. كانت تأخذ بعض الفنون من إيران، وتُزيّن عاصمة العثمانيين بواسطة جمعِ مهندسي عمارة الحدائق الفرنسيين المتأثرين بأسلوب الباروك الإيطالي وحتى اللاتيني، والمثقفين بالمعلومات اليونانية أمثال ديمتري قانتيمير في المركز. باختصار، إن القرن الثامن عشر هو تاريخ العثمانيين الذين بدأوا بتحقيق المواءمة مع أوروبا المتحولة إلى المركزية والمطورة تقنياتها. أما بالنسبة للانهيار الذي تحكي عنه كتب تركيا المدرسية فهذا صحيح. نعم، بدأت الحدود بالانكماش، ولكن من جهة أخرى، بدأ المجتمع بتجديد نفسه، ليس بالسرعة المناسبة ولكن بما يضمن استمراره. وكان يسير نحو القرن التاسع عشر، ويحضّر لمرحلة ستتواءم فيها أمته وتاريخه مع العالم المتطور.

النظام القانوني لدى العثمانيين

لا شك أن الإصلاحات القانونية التي أقدم عليها التُرك هي أكثر مراحل الإصلاح إشكالية في التاريخ القانوني. نسميها إصلاحات قانونية. وفي الحقيقة، إنّ مجتمعات العالم كلها تغير أنظمتها القانونية وقواعدها بين فترة وأخرى. لا مفر من هذه التغييرات. ولكن الأمم التي غيّرت أنظمتها القانونية ونصوصها وتطبيقاتها القانونية بوعي مثلما فعل الأتراك قليلة جداً.

للأسف، إن التغيير الذي نتحدث عنه سمي خطأً أيضاً. يُسمى عموماً الانتقال من النظام القانوني الإسلامي إلى النظام القانوني الأوروبي مما يثير انطباعاً بأن التطبيقات القانونية والإرث القانوني كلها قد رميت جانباً، وتم الانتقال إلى نظام قانوني آخر خلال عدة سنوات.

ونرى توصيفات تاريخية يمكن أن نسميها مشوهة (grotesk). كأن المجتمعَ التركي انتقل من عالم إلى آخر خلال لحظة أو في ليلة واحدة، وهذان العالمان متضادان تماماً. وليس ثمة جانب صائب في هذا، لأن المجتمعَ العثماني مجتمعٌ حيوي، ويعيش ظروفاً خاصة به. عندما اعتنق المجتمع التركي الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية كانت لديه عاداته ونظامه القانوني الخاص.

لا بد من القول إن اجتهادات جديدة ومهمة جداً ظهرت عند دخول الإسلام إلى الشرق الأوسط، وأُخذت من المجتمع السابق مبادئ ومؤسسات مهمة جداً على صعيد الأرض والنظام الضريبي والإدارة المالية على الأقل. ولكن غرابة القانون الإسلامي تتمثل في تجاوبه مع هذا النوع من الاجتهادات، وقبوله هذه الممارسات طالما أنها لا تتناقض مع العقيدة الإسلامية. بقي المجتمع العثماني حتى القرن التاسع عشر - أي ما نستطيع تسميته العصر الكلاسيكي - يطبق مبادئ القوانين الإسلامية في قضايا الأحوال الشخصية، أي في موضوعات الزواج والميراث والطلاق.

ويستمر تلوّن هذه المبادئ. في الحقيقة، تُرى أحياناً ممارساتٌ تتناقض مع اجتهادات القانونيين الإسلاميين بين فينة وأخرى. مثلاً، لا علاقة لما يقبضه أهل الفتاة لقاء زواجها (باشلق أو نامزت) [1] بالمهر الوارد في الحقوق الإسلامية. ولأن هذه عادة قديمة لم يُستطع إلغاؤها، فقد دخلت بنوع من التصالح. وتُرى ليونة في الأحكام الإسلامية في مجال قوانين العقوبات. كما أن حكم الإعدام أو الأحكام السياسية ليست كثيرة في قانون العقوبات العثماني. وتحوّلت الدية إلى حل يسمى تعويضات. وفي الحقيقة،

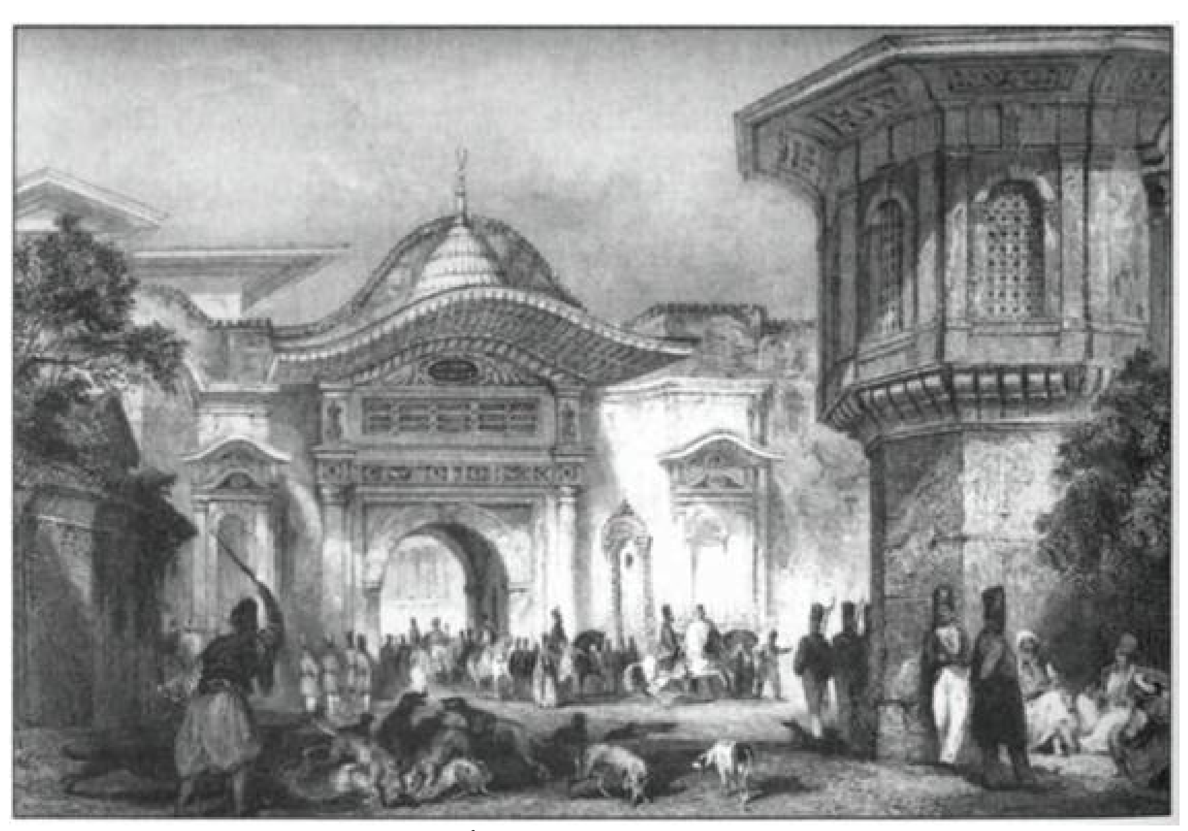
إن هذه الأمور يُنظر إليها كتطبيقات عالمية، وجهود تصالحية.

لقد تم تقبّل العقيدة الإسلامية في حال عدم تصادمها مع المجتمع. ومما لا شك فيه أن الطوائف غير المسلمة كانت لديها إمكانية الاستمرار بأسلوب حياتها ومؤسساتها الحقوقية. كان الرومُ الأرثوذكس مستمرين بمؤسسات روما المتأخرة أو الفترة المسماة اليونانية العثمانية (Tourkokratia)، وخاصة في ما يتعلق بالأحوال الشخصية. وكان المجتمع اليهودي أيضاً يطبق بالطريقة نفسها التوراة والتلمود، والاجتهادات المنبثقة عنهما في ما يسمى نظامي مشناه وهلكها القانونيين.

هناك معرفة ما حول مفردات الدروس في المدارس التي تخرّج رجال القضاء في العهد العثماني الكلاسيكي، أي المجموعة التي كانت تسمى سلك القضاء وتنظيمها؛ وهي الأكثر تنظيماً واستقراراً واعتماداً على القواعد بين الدول الإسلامية الأخرى منذ العهد الكلاسيكي. لا شك أن سلك القضاء وتنظيمه قد خضعا لتغييرات مهمة في القرن التاسع عشر. والمعروف أن هذه التغييرات سميت في القرن العشرين بشكل متطرف باسم الثورة القانونية.

سنعود الآن إلى القرن التاسع عشر. كانت الإمبراطورية العثمانية وسط عالم متحول إلى الصناعة، وقد انتشرت فيه التجارة، وتداخلت فيه الدول والقارات، وهي ما زالت إمبراطورية متوسطية كبرى؛ لا تقتصر علاقتها بالعالم على الحرب والدبلوماسية فقط، بل تمارس التجارة أيضاً، حتى إنها وصلت إلى حال الدولة التي يأتي إليها بعض التجار الأجانب ويسكنون فيها ويعملون؛ ممن يمكن أن نسميهم مستثمرين أجانب.

تم الانتقال على هذه الأرض قبل كل شيء إلى نظام عسكري جديد في القرن التاسع عشر. وأسست جيوش داخلية، وانتُقل إلى نظام مالي جديد من أجل إطعام الجيوش الداخلية. يسمى هذا النظام بنية الدولة المركزية، وهو يتطلب نظاماً مالياً تدار فيه واردات الدولة ونفقاتها من مركز واحد، ويتطلب بنية إدارية جديدة، وطبقة موظفين جديدة، ونظام عقوبات ومكافآت جديداً للموظفين.



الباب العالي/توماس أللوم

هذه الحال تفرض اتّباع مجال ما نسميه القانون الإداري من القانون الأوروبي، وهذا لا يعني بالضرورة اتّباعه بشكل أعمى. مثلاً التحديث في أصول المحاكمات يتّبع النموذج الفرنسي؛ لأن فرنسا كانت الدولة اللامعة في القارة الأوروبية، وذات النظام الأقرب للنظام العثماني السابق. وهذا ليس تقليداً أعمى للفرنسيين. لنصحح خطأ آخر؛ إن القول: »قلدت الإمبراطورية العثمانية فرنسا» قول عام وسطحي. عندما أصدرت الإمبراطورية العثمانية نظام الإطفاء تُرجمت الكثير من اللوائح الأوروبية المتعلقة بالأمر، ووُضعت أمام اللجنة، ونوقشت، وصدر نص متفق عليه.

ولم يؤخذ دستور 1876 - وهو الإنجاز الأهم - أي ما سمي قانون 1293 الأساسي من بلجيكا أو فرنسا كما يكرر البعض كثيراً. فعندما تدققون النظر فيه ستجدونه نصاً ناتجاً عن توافق بعد البحث في كثير من النصوص الأوروبية والأوراسية. وهناك جهد للعثمانية، أو على الأصح جهد لوزراء العهد الحميدي. فهو يتناول وضع طبقة الموظفين على سبيل المثال، وينظّم حياة العمل بموجب قانون. جُلِبَ قانون العقوبات الأوروبي، وطُبِّقَ على الموظفين، ثم انتشر مع الزمن. نتيجة تطور الحياة التجارية في أوروبا أُصدر قانون أصول المحاكمات التجارية في الخمسينيات، وقانون التجارة البحرية في ستينيات القرن التاسع عشر؛ اعتماداً على قانون التجارة الفرنسي.

المحاكمات التجارية مختلطة، ويعيّن فيها الجميع. لهذا السبب، يكون أعضاؤها من أديان مختلفة، وتسيّر على هذا الأساس. أهم ما في الأمر أنه تم الانتقال إلى إجراء كان يُطبّق جزئياً في عهد السلطان عبد الحميد: المحاكم المختلطة... طُبِّق هذا النظام في محاكم الجنايات والمحاكم التجارية، وظهرت تدريجياً مؤسسات الادعاء العام (النيابة) والدفاع وكتاب العدل.

وهذا يتناقض مع مبدأ القاضي الوحيد والمحكمة الوحيدة وجمع القيود كلها لدى اليد الأمينة المعتمد في القانون الإسلامي. وفي هذا النظام، تساعد المحكمة مؤسسات مثل الكتابة العدلية والقوامة كما في أوروبا تماماً. الدفاع والادعاء العام عنصران هامان لتحقيق العدالة، وكلّ منهما مستقل عن الآخر، ولكنهما متكاملان في الوقت نفسه. لا شك أن هذا يتناقض مع مبدأ المحاكمة الأحادية (monist) للقانون الإسلامي. يتخلى دستور 1876 عن صورة من الصور العثمانية الأساسية.

أوقف الفصل بين المسلم وغير المسلم في الأمة؛ وهذه خطوة مهمة جداً. وقد صدرت لوائح تنظيمية للملة الرومية أولاً، ثم الملة الأرمنية - أي جزء الأرمن الغريغوريان - وأخيراً للملة اليهودية ما بين عامي 1861-1865. وتحقق نوع من العلمانية في شؤون الطوائف بتشكيل مجالس ملل يشارك فيها علمانيون بارزون من الطائفة إلى جانب الزعماء الروحيين. وفي الحقيقة، لم تطرح تسمية كهذه، ولم يكن هناك هدف كهذا.

عندما نرغب بحدوث شيء تفرض الحياة نفسها، لذلك وجدت جماعة مختلطة كهذه بين أفراد الطائفة من أجل مساعدة الدولة. لا تنسوا أن قانون المواطنة العثمانية ذاته هو الذي نظم المواطنة العثمانية مباشرة عبر ما يُسمى التابعية العثمانية. وحسب هذا القانون، لا يمكن لامرأة من التابعية العثمانية أن تتزوج من غير عثماني. وهذا غريب جداً. والمعروف أن الزيجات من هذا النوع أدت إلى مشاكل حتى فترة قريبة. أي إن زواج رومية إسطنبولية بيوناني أو هيليني من تابعية الدولة اليونانية في الجزر أو بلابونس يولّد مشكلة. ولكن، يمكن القول إن قانوناً مدنياً بدأ تطبيقه ينتشر في بعض المؤسسات.

أثناء تمرد كريت، طرح الصدر الأعظم الكبير محمد أمين علي باشا بشكل خاص فكرة تحقيق السلام بين مختلف شرائح المجتمع العثماني عبر إقرار القانون المدني الفرنسي (Civil Code). يجب ألا ننسى أن حركات الحداثة، وتياراتها، والناس الذين قاموا بالتحديث لم يكونوا أقل من الذين قاموا بهذا العمل في روسيا أو اليابان، ولم يطرقوا أساليبَ خاطئة. ولكن

هناك صراعاً إثنياً في الإمبراطورية العثمانية، وهذا الصراع يكبح سرعتها، والحركات كلها إما أن تثلّم أو تُقَلّم حتى لو كانت صحيحة. لهذا السبب، وَجد علي باشا أن حل هذه المشكلة يكمن بتطبيق «قانون مدني»، وهو مصيب في رؤيته هذه. كانت المجموعة الأخرى - أي مجموعة أحمد جودت باشا - تقول إن الوقتَ مبكر على عملية قياسية كهذه، وستتسبب بتعقيد أكبر في الوسط.

بالنتيجة، كان هناك توافق، فطُرحت «المجلة» (كتاب الأحكام الفقهية والاجتهادات المتعلقة بها). وهذا عمل استغرق إعداده ستة أشهر، ويعتبر رائعاً من الناحية القانونية بالنسبة إلى ذلك الزمن، وأول نشاط قانوني إسلامي خبير في هذا المجال... ولكن الغريب جداً أن قانون الأحوال الشخصية لم يدخل فيه. لم ينجح حتى جودت باشا بإزالة هذا الفرق، وإدخاله في العمل. في الحقيقة، كان واضحاً إلى أين أدت الصراعات والمشاكل نتيجة إقرار القانون المدني عام 1926.

ليس ثمة حل آخر. لا شك أن الإمبراطورية العثمانية هي الدولة الوحيدة بين المجتمعات الإسلامية العديدة، وحتى بين المجتمعات المسيحية التي تعيش في قوقعاتها التي غيرت مبادئ النظام القانوني بشكل واعٍ، وبذلت جهداً لوضعه في مستوى واحد ضمن المقاييس العالمية الموحدة.

لا شك أن هذا هو ما جعل تاريخ القانون التركي يطرح تطورات غريبة جداً عبر إصلاحات القرنين التاسع عشر والعشرين. انظروا إلى التطورات التي برزت. تم تأسيس برلمان، وأُعلن دستور. وضم ذاك البرلمان نسبة الثلث من غير المسلمين. لا توجد نسبة كهذه في أي برلمان أو دولة أوروبية أخرى. لا أحد يستطيع القول إن هناك نسبة الثلث من النواب المسلمين أو اليهود في النمسا أو روسيا. ولكن النسبة موجودة هنا؛ لأن الجو العام يؤدي إلى هذه النقطة. لا شك أن مجلس الأمة أو مجلس «المبعوثان» مؤسسةُ شورى. من الواضح تماماً أن الذين يقدمون تفسيراً بأن هذه المؤسسة إسلاميةٌ على اعتبارها مؤسسة شورى يقعون في تناقض أساسي؛ لأن الشورى تتم بين المسلمين. ولكن الإمبراطورية اعتبرته نظام شورى اعتماداً على بنيتها وتقاليدها، وأدخلت المواطنين المسيحيين الذين اعتبرت أنّ عددهم يساوي الثلث بالنسبة نفسها إلى البرلمان الذي أسسته.

الآن ثمة تغيير كبير وواقعية شديدة، وفهم للحقائق هنا. وقد حدثت الثورات الحقوقية بين عامي 1830-1870؛ أي أنجزت حركات ستغيّر النظام القانوني وحياة المجتمع في آن واحد، وتزعزعه من مكانه في فترة أقصر من

نصف قرن.

ويلاحظ أَثَرُ هذا في التعليم أيضاً. فقد افتتح محمود خان الثاني مدرسة للحقوق تلبي متطلبات البنية القانونية الجديدة. كان الهدفُ إعدادَ بيروقراطيين يردفون البنية المالية والمركزية الجديدة، والبنية الإدارية. تأسست في عام 1854؛ في زمن شيخ الإسلام محمد عارف أفندي مدرسة عليا للحقوق سميت معلم خانة النواب/مدرسة القضاة، أو كما تُذكر باسم مدرسة قوظاط، وقد خرّجت نخبة حقوقيّي الإمبراطورية. وارتبطت هذه المدرسة بمقام المشيخة (شيخ الإسلام) مباشرة. التدريس فيها داخلي وبمنح، أي إنّ الطلاب فيها مثل طلاب الطب والإدارة والبيطرة. لهذا السبب، لم يكن يدخلها إلا الطلاب الأذكياء المختارون بواسطة امتحان. ولكي لا يقع طلاب المدرسة بالتسيب يفرض عليهم الدوام، ويخضعون للتفقد. تنظِّمُ الإدارةُ الدروسَ في برنامجٍ تراه مناسباً، ويُفرض على المدرسين أن يكونوا جاهزين في المدرسة في ساعات دروسهم... تُبلّغ الإدارة عن الطالب الذي يخرق القواعد. هل توضع هذه المواد في نظام داخلي؟ لا تقولوا ذلك! سيغير دارسو الفقه النصوص القانونية، لذلك يجب أن يتعودوا على نظام الدرس في المدرسة بداية، وما يُتخذ في حال انقطاع المدرس عن الدوام، وإبعاد الطلبة الذين يشاغبون ويتسببون بمشاكل للمدرسين. ثمة انتباه إلى أهمية شكل المدرسة بقدر أهمية مضمونها.

يُدرَّس في المدرسة قانون ملكية الأرض، والأحكام القانونية والفقهية، وقوانينُ المنتجات العثمانية، ولكن الأهم أن موضوعات التجارة البرية والبحرية وأصول المحاكمات الجزائية، والقانون الدولي، والقانون الإداري والاقتصادي من القانون الكاثوليكي تشكل ثلث مفردات المنهج. وسيكون حقوقيو النظام الجمهوري الذين سيتسلمون النظام الحقوقي من خريجي هذه المدرسة. السبب الأول لنجاح هذه المدرسة هو قبولها عدداً قليلاً من الطلاب المنتخبين، ومنحها فرصة بناء الذات براحة. ولم تؤسس لمدة طويلة مدرسة حقوق قليلة الطلاب، وكثيرة الإمكانيات كتلك. وقد بدأت جامعة غلاطة سراي وبيلكنت تواً، ويتم التوجه في الطريق الذي فتح آنذاك.

فور افتتاح المدرسة، تدخلت مجموعة العلماء بشكل جدي نتيجة شعورهم بأن صلاحياتهم ستسحب من بين أيديهم. لأنه في الحالة التقليدية يذهب الطالب إلى المدرس، والمدرسون لا يدخلون إلى الصف، وينظمون ساعات الدروس على مزاجهم وحسب رغباتهم. أي إن المدرس يعطي درسه لسنة، ويتابع في السنة الثانية المادة التي تعتبر مكملة لها، ومن المنطقي

أن يتابع في السنة الثالثة. ليس ثمة شيء كهذا هنا. فالتعليم في المدرسة الدينية يقدمه المدرس، ويتشكل حسب ما يدرسه هناك. لهذا السبب، لا يمكن اعتبار هذا البرنامج منهجاً مدرسياً (curriculum). عندما رأى علماء إسطنبول، أي العلماء الرسميون أن الأمر ليس على هذا النحو، حضّروا برنامجاً مدرسياً كالذي يُدرس في الكليات الأوروبية.

وعندها، لم تنظم السنوات فقط، بل نظمت حتى ساعات الدروس، والغريب أن جدول توزيع ساعات الدروس كان أساس توزيع ساعات محاضرات كلية الحقوق والعلوم السياسية في ما بعد. أي ستعطى دروس عامة من الصباح إلى الظهيرة، وستُقدّم ندوات وبعض الدورات التطبيقية بعد الظهر.

الأمر الأغرب أنه إضافة إلى القوانين الصارمة لدوام المدرسين والطلاب، تعطى دروس عديدة مأخوذة من كليات الحقوق الأوروبية. ويدرّس حتى قانون روما. لهذا السبب، إن العلماء الرسميين يلتزمون بإصلاحات قانونية تمر من مدرسة الحقوق.

كان حقوقيو القرن التاسع عشر وفترة إعلان الجمهورية من خريجي «مدرسة القضاة». ودرس بعض هؤلاء في كليات الحقوق الأوروبية براحة تامة، وشكلوا طبقة حقوقية جديدة.

ولكننا يجب ألا ننسى أن نموذج هذا التعليم لم يلبِ حاجة الإصلاح القانوني الجدية بعد عام 1926. فقد أُعلنت الجمهورية، وأنجزت الثورة القانونية. إقرار القانون المدني لعام 1926 تطلب كوادر مؤهلة. لم تُر الكوادر الحقوقية المتخرجة من مدرسة القضاة ملبية للحاجة.

تأسست كلية حقوق في أنقرة قبل إقرار القانون المدني. ودرّست هذه الكلية الحقوق وفق النظام القانوني الجديد. طبعاً لم يُنفّذ هذا لأن النية شيء والواقع شيء. هرّبت الوحشية التي عصفت بأوروبا عام 1933 بعض علماء القانون اليهود واليساريين. أولئك الرجال الذين يُشك بأنهم يمكن أن يأتوا إلى تركيا في قطار الشرق السريع في نزهة سياحية، جاءوا بداية إلى كلية حقوق إسطنبول، ثم إلى كلية حقوق أنقرة. منهم هيرش، وشوارتز، وكوشاكر... وهكذا، استقرت كوادر الثورة القانونية. ولكن الطلاب لا يعرفون لغات أجنبية، ولا يعرفون اللاتينية أيضاً. يعرف حقوقيونا السابقون العربية، أما الجدد فثمة من يلفظ منهم مفردة أقمشة جمع قماش «آق مشة/سنديان أبيض» ويعتقد أنه نوع من الخشب. كانت كلية الحقوق مستودعاً للطلاب. لا يحكى عن الطلاب الأذكياء القليلين المختارين بعناية من

الدارسين في كلية الحقوق، ودارسي العلوم السياسية في أمريكا وإنكلترا. كنا نذهب إلى كلية الحقوق المجاورة ونحن طلاب في كلية الإدارة، ونستمع لقدرت آيتر، ونجيب بلغة، ومقبل أوزيوروك، وهجري فيشك، وجوشقون أوتشوق، ومنجي قباني الذين يقطر العسل عن ألسنتهم. كانت جالة وإلهان آق إيبك خزينتي لغات. حضور دروسهما ميزة وترف. كنا محظوظين في الجامعات التركية بالحقوقيين العالميين الذين اضطروا للهرب من ألمانيا الهتلرية عام 1933... الواقع أن العالم لم يرحب بهم، ولكن تركيا الحديثة احتضنتهم، وقد خدموا هنا بكل ما أوتوا. كانت كلية حقوق إسطنبول، ومدرسة حقوق أنقرة من العناصر المؤسسة لجامعة أنقرة عام 1940.

ما زال تدريس تركيا الحقوقي في صفحة التطوير إلى اليوم. نحن مضطرون لعمل مبادرات جديدة وتنفيذها. هذه حقيقة؛ نحن مجتمع من المجتمعات النادرة التي غيّرت نظامها القانوني، وأظهرت هذا الوعي بوضوح عبر سيرورتها التاريخية، وهذا الأمر مستمر. ولكن الحقوقيين ليسوا كالأطباء والمهندسين، فهم مضطرون للمحافظة على التقاليد والمعلومات القديمة. وجانبنا الأضعف على ما أعتقد هو ضعف وعينا ومعرفتنا بتاريخنا القانوني. نحن مضطرون لتلافي هذا الأمر.

غازي مصطفى باشا والدفاع عن بلفن

دخل دفاع غازي عثمان باشا المدهش عن بلفن (في بلغاريا) التاريخ العسكري العالمي. توفي غازي عثمان باشا في نهاية القرن بعد أن شغل منصب رئيس الأركان وكبير مساعدي سلطان السلاطين لفترة طويلة. ثمة رابط زواج بين أولاده وأولاد عبد الحميد الثاني. وسكن الأولاد ثمرة هذا الزواج خارج البلد بشكل جزئي.

لم يخطر ببال أحد أن يُطلق اسم غازي عثمان باشا على شارع عريض أو رئيس عندما كنتُ طفلاً. كل ما في الأمر أن أغنية عثمان باشا التي يبعثُ من خلالها البعد التركي لمنطقة روملي تُحفّظ في المدارس. نزل طلاب إسطنبول وأنقرة إلى الشوارع في 28 نيسان 1960 وهم يرددون أغنية على لحن تلك الأغنية: »أممكن هذا أممكن؟ هل يقتل الأخ أخاه؟«.

لهذا السبب طُرح فجأة اسم غازي عثمان باشا إثر أحداث 27 أيار [2] . وغُيّر اسم حي بيوت 14 أيار الذي يسكنه النواب في أنقرة، وحي طاشلي طرلا الذي يفضل السكن فيه أنصار الحزب الديمقراطي في إسطنبول إلى اسم غازي عثمان باشا. من أقدار التاريخ أن يُبعث اسم أفضل قادة حرب عام 1877. أما الآن، فيناقش المؤرخون الأتراك والروس حرب 1877-1878 معاً، ويقيّمونها، وهذا تطور.

وصل غازي عثمان باشا إلى رتبة ماريشال (مشير) في سن مبكرة جداً. بقدر ما لدى الإيطاليين من موسيقيين ومغنين، بقدر ما لدى الفرنسيين من كتاب، والأتراك من ماريشالات. وهؤلاء الماريشالات على مستوى عالمي، ودخلوا التاريخ. أول تسعة سلاطين مؤسسين للإمبراطورية العثمانية دخلوا التصنيف العسكري بصفتهم ماريشالات كباراً. كان الفاتح «ماريشال» كسب حرب حصار كبرى وهو في الثانية والعشرين من عمره. والسلطان سليمان القانوني حاكم انتصر في معركة ميدان غيرت تاريخ أوروبا، وهي معركة موهاج حين كان لا يزال في الحادية والثلاثين من عمره. جلس السلطان سليم خان الجبار على العرش متأخراً. سجل قبل هذا الجلوس انتصارات محلية، ولكنه حقق انتصارات مهمة خلال فترة الأعوام الثمانية التي جلس فيها على العرش. أحد تلك الانتصارات في الريدانية. وكما نعرف جميعاً، فقد عبر الصحراء بجيش ضخم من دون أن يضحي بأحد. بعد أربعة قرون أهلك جمال باشا في تلك الصحراء أبناء الوطن، وفقد غالبية الجنود بصرهم لعدم وضعهم نظارات رملية، وكُسر الجيش من العطش، وأصدر أمراً

لا ضرورة له بالهجوم على متاريس الإنكليز. نجم هذا عن تقليد رجلٍ غرٍّ لا علاقة له بفن الحرب القيادية، وإلا فإن تلك الهزيمة لا تعني فقدان الجيش التركي خصوصيته. على الرغم من هذا، فقد ظهر في تلك المعركة قياديون شبان كبار. منهم فؤاد أفندي أحد أفراد الأسرة المالكة. نُشرت صورة الأمير على غلاف مجلة الحرب بعد تحقيقه نصراً كبيراً، ولكن «أنور» باشا غار منه، فألغاها. تعرّض المقدم مصطفى كمال للظلم ذاته في أثناء معركة تشنق قلعة كما تعلمون. رُفِّع مصطفى كمال إلى رتبة عقيد في تلك الأثناء، ولكن صورته أزيلت عن غلاف مجلة الحرب بالطريقة نفسها.

هناك عدد لا يحصى من الضباط الناجحين في الدفاع عن فلسطين، وعن المدينة، وعلى جبهتي القوقاز وغاليتشيا.

غازي عثمان باشا أحد قادة أمة حكمت معظم العالم. لقد قام بمهمته على أكمل وجه على الرغم من الهزيمة، والتراجع حتى العاصمة. ثمة فائدة من القول إن الجيوش التركية لا تعرف التراجع، ويؤدي انسحابها إلى نتيجة كارثية حتى لو كان انسحاباً منظماً. هذا تقليد قديم. عرفنا التراجع للمرة الأولى في حرب الاستقلال. جيوش روما كانت ناجحة جداً بحركة التراجع عبر التاريخ. الجيوش الأوروبية أيضاً لا تعرف التراجع منذ زمن طويل، ولم تتعلمه إلا بعد القرن الثامن عشر. حملة نابليون على موسكو مؤشر على عدم تعلمهم هذا. بالطريقة نفسها لم يعرف الألمان التراجع في الحرب العالمية الثانية أيضاً.

تُرجمت قصة معركة بلفن التي وقع فيها غازي عثمان باشا بموقع الدفاع إلى: لا أتدفق يا نهر طونا. لقد كتبها مراسلان حربيان شهيران في تلك المرحلة هما أرتشيبالد فوربس وماك غاهان. ويحكى فيها عن دفاع بطولي شارك فيه الشعب كله. وفي الحقيقة خيضت الحرب وجهاً لوجه في الأزقة. ويجب ألا ننسى أن الجيش الروسي الذي كان في المواجهة أكبر عدداً، ولا يستخف به في قضية الحرب. وفي الحقيقة لا يقلون عن جنودنا بالقتال وتحمّل أنواع الصعاب كلها. وبقدر ما استشهد من قادتنا قتل من قادتهم.



استقبال جماهيري لغازي عثمان باشا لدى عودته إلى إ سطنبول

تخاض الحرب الروسية - العثمانية على جبهتين: جبهة طونا وجبهة قارص - أرضروم في الشرق. وعلى كل جبهة سقط خمسة أو ستة جنرالات روس. وفي الحقيقة، إنّ الأنانية واللصوصية منتشرتان أكثر في الجيش الروسي. رعاية الجنود سيئة جداً. وعلى الرغم من تحقيقهم النصر، فقد انهار جيشهم بالأمراض السارية والحمى التيفية والكوليرا عندما وصل إلى يشيل كوي، وكان اسمها في ذلك الوقت أياستيفانوس. ولعبت التغذية السيئة، وعدم كفاية الذخيرة والإعاشة، وعدم تحضير ظروف الإقامة الجيدة دوراً مهماً في هذا الأمر. جُهز مشاة جيشنا بأسلحة رائعة. كانت رشاشات آخر طراز تستخدم. ويقال إن الجيش الروسي لم تكن لديه التجهيزات نفسها. بالمقابل، لم تكن شريحة المدفعيين الأتراك على درجة الجودة نفسها معهم. على الرغم من هذا، أظهر ضباطنا المدفعيون مواهبهم وسعة معلوماتهم. تمكن الجيش العثماني بعد الإصلاحات من تأسيس كلية أركان حرب كبيرة وبسرعة تضاهي ما توصلت إليه الجيوش الأوروبية لتخرج شريحة ضباط ماهرين. ويمكن رؤية مدى نجاح هؤلاء في حرب القِرَم، وخاصة في حرب العثمانيين الأتراك والروس. كان بين الروس قادة لامعون مثل الجنرال ألماني الأصل المهندس العسكري تودليبن (tod تعني الموت، و leben تعني الحياة. أي إن كنيته تعني بالألمانية موت حياة). تسبب الجنرال تودليبن بإيقاع

خسائر كبيرة في صفوف قواتنا بواسطة مرابض المدفعية التي أسسها، والتقنيات العسكرية التي أبدعها. وأفاد الروس كثيراً خلال عملية خرق الحصار التي قام بها عثمان باشا.

النقطة الثانية التي يجب الانتباه إليها هي أن البعض يقول: «أبلغ الجواسيس اليهود القيصر بالقضية الفلانية». ليس ثمة مجموعة جواسيس يهودية أسسها القيصر. ليس ثمة شيء كهذا. ولكن هناك مجموعة من يهود أوروبا الشرقية تعيش في بلفن أبلغت الطرف الآخر بحركة خرق الحصار نتيجة انحطاطها الأخلاقي وحبها للمال.

ثمة نوعان من الجيش في العالم: أحدهما يتبنى الانضباط العسكري والتقاليد والمبادئ بقوة. ويحارب أفراد هذا الجيش بتهذيب وشجاعة وفروسية، ويتجنبون السلب والاعتداء على الأعراض والقتل عندما يتقدمون في الحرب أو يستسلم الطرف الآخر. مع الأسف، إن الجيوش الألمانية لم تحافظ على خصوصيتها هذه أثناء الحرب العالمية الثانية، وأقدمت على عمليات قتل جماعي وتطهير. ليس ثمة واقعة كهذه في تاريخ جيشنا. أرجو أن يوضع هذا في زاوية من زوايا عقلنا في موضوع القضية الأرمنية. النوع الثاني من الجيش هو الجيش الغدار النهاب لعدم امتلاكه تقاليد عسكرية خاصة بأمته ودولته؛ ومع الأسف، إن جيوش البلقان من هذا النوع. لا يوجد حد للمجازر التي ارتكبتها الجيوش البلغارية وخاصة الجيوش اليونانية أثناء حرب البلقان. عندما دخل الجنود إلى سالونيك، هاجموا الأحياء اليهودية المكتظة بالسكان، وارتكبوا مجازرَ هناك؛ لأن هدفهم كان تنفيذَ تطهير عرقي، وهلينة سالونيك، أي يوننتها. ولم يتحلَ الجيش البلغاري أثناء حرب 1293 وحرب البلقان بأخلاق المحاربين. لم يستطع لعب دور محتل ذي كرامة عند احتلال أدرنة.



معسر «الزيبق» في إسطنبول أثناء معركة 1878 - 1877

أشارت حرب 1293 بقوة إلى تآكل أراضي الوطن الأم في تراكيا أكثر مما أشارت إلى انهيار الإمبراطورية. بعد هذا، وقعت كارثة حرب البلقان التي تسببت بها سياسة تركيا الفتاة عمياء البصيرة، وفتحت تصدعات في تركيا لم ترمم على مدى سنوات طويلة. خسر الوطن أكثر أراضيه خصوبة، وأقدمها. بعض ولايات روملي التي خرجت من السيطرة كانت جزءاً من الوطن العثماني، وسكنها الأتراك قبل بعض أجزاء شرق الأناضول. هذه كارثة ينبغي ألا تُنسى. مع الأسف، إن هذا لا يُشرح بالتفصيل للأطفال الأتراك. لا أحد يطالب المؤرخين بالكذب وكتابة الحماسيات والتلفيق. يكفي أن يكتبوا الحقائق، وأن يشرحوها بأعصاب هادئة. لا يمكن للأمة إلا أن تنقل تاريخها وتكتبه بشكل صحيح. تصوروا أمة تحاول محو تاريخها القريب من ذاكرتها كمريض نفسي. يمحون بعض الوقائع من ذهن المريض لكي يصحو لنفسه. من غير الممكن أن تطبقوا هذا على حياة المجتمعات. لهذا السبب، ينبغي أن نعرف حروب البلقان جيداً، وأن نشرحها.

دافع غازي مصطفى باشا عن بلد لعب مدحت باشا دوراً مهماً بتتريكه وأسلمته أثناء ولايته له. لم يكن مدحت باشا رجلَ دولةٍ وصدراً أعظمَ ناجحاً في بيت العرش، ولكنه أثناء ولايته على ولاية طونا أسكن أتراك القوقاز وروسيا ومسلميهما في ذلك البلد محققاً تتريك ذلك المكان،

ودمغَ تلك الجغرافية بدمغة العثمانيين. نحن مضطرون لتقدير هذا، ونعرف أن ذكرى الوالي الكبير مدحت باشا كانت إحدى وسائل الدعم المعنوي التي أبقت على بلغاريا تركية لمدة طويلة. ولا شك أن غازي عثمان باشا الذي دافع عن ذلك الوطن، وكاد أن يستشهد أثناء دفاعه كان أداة دعم معنوي ثانية. ترك هذان الاسمان آثاراً لا تنسى في ذاكرة أتراك روملي؛ مثلها مثل آثار سلطان السلاطين الذي فتحها مع قادته الكبار، والذي لم يكن يحب وجود غازي عثمان باشا في مركز مدحت باشا. وحقيقة الأمر، كان يعارض انقلاباً عسكرياً في مؤسسات ملكية. هذه رؤية مهمة جداً على لسان عسكري كبير، ويجب الوقوف عندها.

حظي غازي عثمان باشا باحترام جميع القادة العسكريين المحليين والأجانب. وعلينا أن نبرز هذا: دخلنا بتحالف مع الألمان طوال عهد السلطان عبد الحميد، ولكن حسب أنصار الاتحاد والترقي، إن غازي عثمان باشا كان يظهر فرقاً كبيراً في هذه المرحلة ومرحلة المشروطية (الملكية الدستورية) في ما بعد. كان غازي عثمان باشا يستخدم مقر قيادة الألمان مجاملة فقط، ومن أجل أن يقول للعالم الخارجي، أي للإنكليز والروس: «ألمانيا حليفتنا». وقد كانت الهيئات العسكرية الألمانية تُستبعد عن صفوف الجيش وصفقات السلاح وخطط الأركان العامة والقرارات الاستراتيجية. وكان لغازي عثمان باشا دور كبير بهذا.

حتى إن السلطان عبد الحميد يقول في مذكراته: «يسيطر على ضباطنا الشباب الذين درسوا في أوروبا وخاصة في ألمانيا غرور كبير، مع أن أيًّا منهم ليس من مستوى قادتنا السابقين، غازي عثمان باشا على سبيل المثال». وفي الحقيقة، إن الأجانب والمحليين لعبوا دوراً كبيراً في حياة دولتنا. ويجب التوقف عند هذا الحكم.

الدول العظمى والعثمانيون

يستخدم هذا الاصطلاح في سياستنا وتاريخنا الأدبي عموماً بشكل خاطئ جداً. « The Great Power » أو « Puissances étrangères » أو الدول الكبرى اصطلاح استخدم في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حتى الحرب العالمية الثانية لتسمية الدول العظمى. وتعرّف الدول العظمى بأنها المحددة للسياسة الدولية، وهي إنكلترا فرنسا وبعدهما جاءت ألمانيا ثم روسيا والنمسا - المجر، أما الدولة العثمانية فقد كانت إمبراطورية متخلفة في طور الانكماش تخضع لرغبات تلك الدول، وليس لديها أي مساواة معها من الناحية القانونية. ثمة فائدة من رسم مشهد الأمم وعائلتها لرؤية مدى الخطأ باستخدام هذا الاصطلاح.

تغيرت مكانة الدول في نهاية القرن التاسع عشر، وخاصة مكانة الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة نموها الصناعي وغنى زراعتها وثرواتها الباطنية. وقويت اليابان بعد الحرب الصينية اليابانية، ومعركة 1905 التي هزمت فيها روسيا، ومحقت أسطولها بشكل كارثي؛ مما غيّر الوضع في آسيا كثيراً، ومن الواضح أن اليابان دخلت بين تلك الدول الكبرى.

أثبتت القوات الألمانية تفوقها من خلال معركة سدان بين الفرنسيين والألمان، وبمعاهدة فرساي عام 1871 توحدت ألمانيا، وأعلنت نفسها إمبراطورية، أي إن الرايخ الألماني الكبير ظهر نتيجة الإقرار بالنصر، ودخلت ألمانيا بين الدول الكبرى. ولكن قبل هذا كانت روسيا موجودة، وهناك سفارات لبافاريا في العديد من المناطق، وحتى إن هناك دويلات مثل بالاتينات ودوقية فورتمبيرغ. انتهت هذه، وغدت ألمانيا إمبراطورية.

النمسا إمبراطورية مستقلة منذ تفتيت نابليون لإمبراطورية روما الجرمانية، ومن المعروف أن هذا ما جعل إمبراطور النمسا فرانسيس الثاني يأخذ لقب فرانسيس الأول بصفته إمبراطورَ النمسا. انفصلت المجر عن بنية النمسا عام 1867 باتفاقية مساواة، وأصبحت النمسا - المجر. ترتبط الإمبراطورية النمساوية والمملكة المجرية بالدول التي سأذكرها أدناه، كما أن لديها مرحلة إعادة بناء مختلفة تماماً.

في وسط كهذا، غدت إسبانيا التي كانت تُمثل في الإمبراطورية العثمانية بمستوى سفير متوسط بين الدول الكبرى. لم يعترف بها العثمانيون في أي وقت كدولة كبرى، ولم يتم التمثيل بين العثمانيين وروسيا على مستوى سفير كبير إلا بعد الاعتراف المتبادل بموجب معاهدة برلين.

قبل هذا، كان ثمة ممثلون هنا برتبة «سفراء»، مثلاً إغناتيف ممثل روسيا الذي نسميه سفيراً كبيراً هو في الحقيقة موظف برتبة سفير عادي. ومما لا شك فيه أنه كان مؤثراً جداً، ولم يكن يُمثل هنا قبل الوحدة الألمانية بمعاهدة فرساي سوى سفير بروسيا. وعلى الرغم من أن ممثل بروسيا كان سفيراً، ولكنه كان سفيراً يستطيع فرض كلمته.

خصوصية الدول الكبرى هي أنها ترسل سفراءَ كباراً. أما اليوم فلجميع الدول سفراء كبار. تُمثل أصغر دول جنوب أمريكا، أو دويلات ذات 25 ألف أو 50 ألف أو 100 ألف نسمة مثل دولة بابوا غينيا الجديدة في المحيطات بسفراء كبار.

كانت الدول التي تتبادل الاعتراف ضعيف المستوى تتمثل بمندوب أو سفير. مثلاً هكذا كان التمثيل بين تركيا وإسرائيل على الرغم من اعتراف تركيا بها. وكان اعتراف تركيا بجمهورية بلغاريا الشعبية على هذا المستوى. وخلال فترة قصيرة، وخاصة في ستينيات القرن العشرين تطورت الأسرة الدولية التي تفرض العيش بسلام. كان الموظفون الذين بمستوى السفراء الكبار لهم مكانة مختلفة جداً، ويمكنهم تحديد السياسات قديماً.

وكان هذا يُنفذ وفق مذكرة memorandum)) ومعايير تحددها عموماً وزارة الخارجية. مثلاً أصدر كولبرت باعتباره وزيراً للويس الرابع عشر تعليمات لسفرائه الكبار. حسب التعليمات يمنح السفراء الكبار « ambassadors » صلاحيات فوق عادية تمكنهم من تحديد السياسة. تفعل إنكلترا وفرنسا والدول الأخرى هذا أيضاً. ولدى هؤلاء الحق بالاحتجاج الخطي على بعض الأمور أو التدخل المباشر أحياناً.

يمكن أن يجتمع عدة سفراء معاً للتدخل. وقد فعلوا هذا في عاصمة العثمانيين بشكل خاص. كما فعلوا ذلك في روسيا، وليس ثمة سبب لعدم قيامهم بهذا في إنكلترا وفرنسا. يجتمع السفراء في العاصمة وفق الدرجة الوظيفية، ويعدون لائحة مشتركة، ويراجعون وزارة خارجية تلك الدولة، ويمكن أن يُقدموا طلباً أو احتجاجاً شديد اللهجة. بالطبع، لم يكن بين السفراء تنظيم بالمعنى القائم اليوم.

لا يتقدم الممثّلون بدرجة سفير متوسط - سفراء الدول الصغيرة - على الآخرين، ولا يتساوون معهم في البروتوكول. يبلّغ هؤلاء بالقرارات التي يتخذها السفراء الكبار في بعض المواضيع دون أن يحضروا تلك الاجتماعات. مثلاً حين يجتمع سفراء إنكلترا وفرنسا والنمسا - المجر، وانضم إليهم في ما بعد سفير ألمانيا، وبعدها سفير إيطاليا في العاصمة العثمانية، ويناقشون

بعض المواضيع، لا يحضر تلك الاجتماعات سفراء بلجيكا أو رومانيا أو اليونان وحتى هولندا أو الدانمرك أو السويد أو النرويج، ولا يشاركون باتخاذ القرارات، ولكنهم يُبلغون بالنتائج.

على الرغم من هذا، لم يكن لأي من هذه الدول مكان في مؤتمر السفراء المجتمع في الخليج سنة تمرد البلقان 1875. وإذا ادعى البعض أن لهم علاقة بهذا الأمر، فإنهم تبلغوا بالقرارات المتخذة فقط. الغريب في الأمر أن سفراء بعض الدول الكبرى حضروا اجتماعات كهذه على الرغم من عدم تمثيلها بسفير كبير في بعض الحالات. ما هي تلك الدول؟ لا شك أن بريطانيا العظمى على رأس الدول التي لديها سفراء كبار في الدولة العثمانية، ثم تأتي فرنسا، ثم النمسا - المجر، وإمبراطورية بروسيا - ألمانيا، وبالتأكيد ألمانيا بعد معاهدة فرساي، ثم دخلت إيطاليا وروسيا بين هذه الدول العظمى، كما كان لدينا سفراء كبار بالطريقة نفسها لدى تلك الدول العظمى، أي إن الدولة العثمانية كانت واحدة من الدول العظمى. ومما لا شك فيه أن الدول العظمى في القرن التاسع عشر لم تكن جميعها بالدرجة نفسها.

كانت إنكلترا دولة عظمى. وكانت دولة لديها مستعمرات واسعة جداً في الأرض، وعدد كبير من السكان. وضعها الاقتصادي جيد جداً. وهي دولة طليعية بالصناعة، ودولة تجارية وبحرية. سير عمل بيروقراطيتها بمنتهى الجودة. عندما تدخلون إلى أرشيفها ترون القيود والتقارير المدونة. تُدار بعض الأماكن من العالم بواسطة الخبراء، فإمبراطورية الهند على سبيل المثال يديرها نائب الملك، وهي جزء من التاج. وهناك مكتب الهند Indian Office وهو الذي يعيّن السفير الكبير في إيران. يرسل السفير الكبير إلى إسطنبول من لندن، ولكن سفراء البصرة وبغداد وقناصلهما يعينون من دلهي. وأولئك يعرفون الفارسية على سبيل المثال، وهم سفراء كبارٌ ومؤهلون وخبراءٌ ومؤثرون. وتستحق تقاريرهم القراءة، ويحب المؤرخون قراءتها.

ولدى بعض الدول العظمى شبكة لا يمكن تصورها. مثلاً كانت روسيا على هذا النحو في الإمبراطورية العثمانية. لغة سكان البلقان تشبه اللغة الروسية بنسبة تسعين بالمائة، وهم من العقيدة نفسها. ولا شك أن شبكة القنصليات هناك كانت مكاتب معلومات، وأداة تحريض في بعض الأحيان. كيف كان وضع الإمبراطورية العثمانية بالمقابل؟

كانت لديها شبكة قنصليات أكبر مما لديها اليوم. مثلاً كانت هناك قنصليات في باطومي (جورجيا) وباكو والقرم وأوديسا وسان بطرسبورغ. وثمة

واحدة في موسكو، وأخرى في قازان اليوم. وكان هناك بعض الممثليات في آسيا الوسطى. وكانت هذه تتدخل بالسياسة بشكل فاعل.

ومثل الامتيازات (capitulation) هناك بعض الأتباع الذين يحملون جوازات سفر الدولة العثمانية. ويعيش هؤلاء في جاوا التي تعتبر جزءاً من أندونيسيا اليوم، والهند، وآسيا الوسطى، والقوقاز. ويعمل حاملو هذه الجوازات هناك. إما أن يكون هؤلاء تجاراً أو يسيّرون عملاً ما أو مزارعين كباراً أو رجال دين. وعندما يتدخل أحد بشؤونهم تتدخل القنصليات التركية كما تفعل القنصليات الأجنبية في تركيا. لهذا السبب، كان بعض قناصلنا يُطردون من المستعمرات الإنكليزية والولايات الروسية بإعلانهم أشخاصاً غير مرغوبين grata non persona ، ولكن لا تأتي إجراءات إضافية بعد ذلك.

يصل هؤلاء إلى درجة جمع التبرعات مثلاً. بهذه الطريقة أسسنا سكة الحجاز الحديدية، ولكن ثمة حقيقة هنا: لم تكن الإمبراطورية العثمانية دولة كبرى تتدخل في كل شيء، وتحاول تنظيم كل شيء. الدولة العظمى دولة تتدخل ببعض الأمور، وتحاسب على بعضها. هل تستطيع إنكلترا أن تفعل كل شيء باعتبارها الدولة الكبرى؟ لا. ولكنها لا تسمح بعمل ما لا تريده.

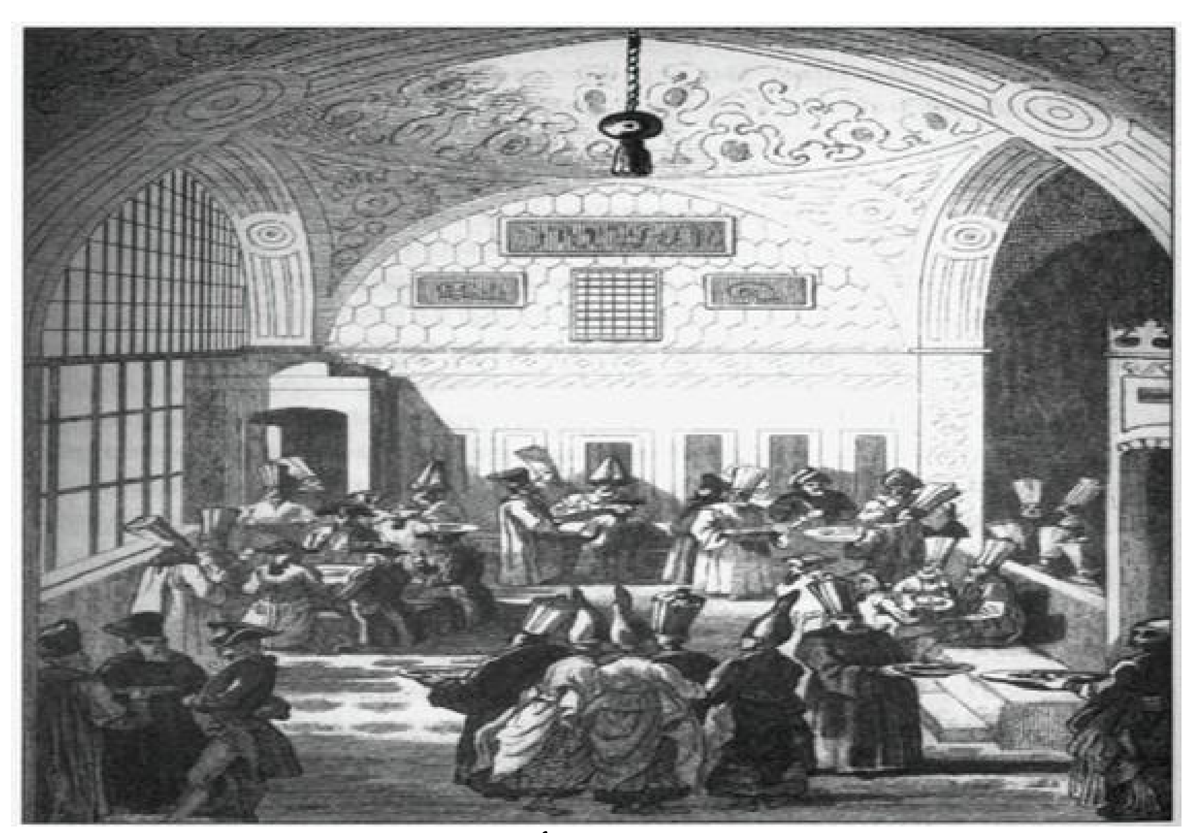
هذا فرق مهم جداً. كانت فرنسا تضطر لأن تغض الطرف عن بعض الأمور التي لا تريدها. النمسا - المجر بمستوى أقل بكثير. وكانت الدول الأخرى تتوحد مقابل بعض مطالب روسيا. دخلت الإمبراطورية الألمانية إلى هذا المجتمع بصخب مثل ولد مشاغب، ولم تنتهِ المشاكل التي أحدثتها، ولم تتيسر لها الأمور دائماً. موهبة تمثيل هذا الترتيب للدول العظمى أمر مختلفٌ تماماً. مثلاً في الربع الثالث من القرن التاسع عشر حاولت الدول العظمى التأثير على الرأي العام المحلي بواسطة بعض الجرائد التي تصدرها أو تموّلها. كان هذا النوع من العمليات يستهدف الدولة العثمانية. إذ يُشترى بعض الصحفيين الأوروبيين ليكتبوا حسب رغباتهم.

يقول بعض مؤرخينا إن «منير» باشا صالح صاحب خبرة في هذه المجالات، وحتى إنه كان يستفاد منه في بعض القضايا المالية، هذا على ذمتهم، ولكن من الواضح تماماً أنه حل الكثير من المشاكل لدى الرأي العام الفرنسي (كان بمركز سفير كبير لدى بلجيكا في الوقت نفسه). كان دبلوماسياً خبيراً يمكنه التأثير على الرأي العام. ومن الممكن رؤية هذا في الدول الأخرى أيضاً.

مثلاً، تمكن سفيرنا الكبير في برلين من إغلاق بعض الجرائد التي كتبت مقالات ضد سلطان السلاطين والدولة والباب العالي. كان العمل هناك أسهل.

إذ يشتكي للإدارة في برلين، فتقوم الدولة الألمانية بالعمل. وقد منعت بعض الحركات ضد الإسلام. كانت تُعطى أهمية لهذه الأمور. كانت الدول الكبرى تقوم لدينا بأعمال مشابهة أيضاً، وتتمادى في بعض الأحيان.

لا شك أن احتجاجات سفراء الدول الكبرى الكبار واعتراضاتهم في العاصمة لا تتشابه في ما بينها على صعيدي اللهجة والأسلوب. وقد تمادوا كثيراً ذات مرة في العاصمة. وقد وجدت بعض الآليات من أجل الحيلولة دون هذا. كان عزت باشا العربي أو الخال عزت باشا ينظم ملفات للممثلين الدبلوماسيين الذين يأتون إلى العاصمة في عهد عبد الحميد الثاني. هل يلعب القمار؟ هل لديه مشاكل أخرى؟ كان يحدّد كل تلك المشاكل. وإذا كان السفير رجلاً مستقيماً كان يحاول إبعاده عن طريقه. وهكذا يتشكل ملف ابتزاز. أمورٌ تترك لحكمة الحكومة. وهذا بالطبع لن يحوّل سياسة الفرنسيين أو الإنكليز أو النمسا - المجر لصالحنا تماماً. كان هذا أسلوباً مساعداً جداً في بعض الحالات، ويحول دون التصرف الفظ من خلال الاحتجاج، أي بمعنى رجاء أخفضوا صوتكم يا صاحب السيادة. وهناك حالات يقيم فيها بعض الممثلين الدبلوماسيين علاقات قريبة مع بعض رجال الدولة. رجلا التنظيمات علي باشا وفؤاد باشا دبلوماسيان محترمان جداً. لا شك أن مصطفى رشيد باشا دبلوماسي كبير، وكان مؤثراً إلى درجة أنه غيّر وجه السياسة الأوروبية أثناء حرب القرم. ساهمت كل دولة كبرى موقعة على مؤتمر باريس لعام 1856 بتأسيس المؤسسة الكبرى التي تدعى المجموعة الأوروبية « Concert d'Europe ». وأمّن هؤلاء لبعضهم بعضاً حياتهم وحدودهم. لم يكن ذلك مفيداً بالعموم، ولكن بعض النقاط أفادت بتطوير المؤسسة.



وليمة لكبير الوزراء وسفير أوروبي / ٥ . لالاي سة

كان للإمبراطورية العثمانية حق إذعان استثماري مثل بقية الدول باعتبارها دولة أوروبية. إذا لم تستخدم هذا الحق فالأمر مختلف. وروسيا أيضاً لم تستخدم هذا الحق جيداً. خارج النمسا - المجر لعل إيطاليا لم تكن فعالة كثيراً باستخدام هذا الحق، ولكن لم يكن هناك مانع لتكون فاعلة. لننظر الآن إلى حياة هذه الدول العظمى الاقتصادية وتأثيرها على الحلبة السياسية. قلنا إن الولايات المتحدة الأمريكية تنهض بفضل عدد سكانها ومصادرها وصناعتها. لعلها تتقدم كثيراً على الدول الأوروبية. تتقدم، ولكنها لا تتدخل بشؤون القارة. مثلاً، كانت الإمبراطورية العثمانية تلح على الولايات المتحدة كثيراً من أجل تبادل السفراء الكبار بينهما، ولكنها لا تهتم.

بقيت أمريكا على هذا النحو حتى أواسط الحرب العالمية الأولى. ولكنها رفعت درجة هنري مورجنتاو من سفير متوسط إلى سفير كبير وسط الحرب، ورفعنا مستوى تمثيلنا إلى الدرجة نفسها. أقامت أمريكا مع دول أوروبا الكبرى، وبريطانيا علاقات بمستوى سفراء كبار منذ زمن، ولكن لم يكن ثمة تدخل لهذه الدول عموماً في بعض المواضيع.

لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية فاعلة بالتدخل السياسي لدى الإمبراطورية العثمانية. من كان فاعلاً؟ إنكلترا بالنيابة عنها. يفتح المبشرون الأمريكان مدرسة مثلاً، فتقع مشاكل مع المسؤولين المحلين وحتى الكنائس

المحلية، لأنهم بروتستانت. تشتكي البطريركية الأرمنية لأنهم يؤثرون على طائفتها. ويدافع عن حقوق أولئك المبشرين القناصل المحليون أكثر من الممثلية الأمريكية. وتهتم فرنسا وروسيا وفي أحيانٍ نادرة النمسا بحقوق الملل غير المسلمة. بدأت ألمانيا تكون فاعلة أكثر في القرن التاسع عشر، وقابلت الإمبراطورية العثمانية هذا بالقبول. كانت إيران التي لديها سفارة عندنا منذ زمن طويل دولة مقبولة. كانت أكثر الهيئات الدبلوماسية أبهة تأتي من النمسا وإيران، وكانت السفارة الإيرانية هي السفارة الوحيدة من الدول الإسلامية. وحدثت مشكلة رفع العلم ذات مرة. ولكن إيران لم تكن تُعد من الدول العظمى.

عالم القرن التاسع عشر والعثمانيون

بدأت رياح الحرب تهب على أوروبا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وكانت معاهدات التحالف والزيارات المتبادلة بين الدول الكبرى على قدم وساق. أُطلق اسم الكسندر الثالث على جسر في باريس بمناسبة زيارته لها. وفي الحقيقة، إن التقارب الفرنسي الروسي ناجم عن عدم تحقيق تقارب ألماني روسي. والأسباب جلية. كان الصناعيون والمزارعون الحداثيون والماليون الروس معجبين بألمانيا. وهذا ناجم عن التأثير الألماني على تعليمهم، والحداثة الزراعية التي أبدعها المزارعون الألمان الذين سكنوا الأراضي الروسية منذ عهد كاترينا. أرسل المزارعون المشاهير أبناءهم إلى الثانوية الألمانية (Gymnasium)، واستخدمت اللغة الألمانية في تلك الأوساط. لهذا السبب، سيطرت فكرة مفادها أن التقارب الألماني الروسي سيغني روسيا من خلال جلب التقنية الألمانية إليها، وتدفق بعض المواد الأولية الغنية من العثمانيين إلى هناك، وسيمكّنها من القوة التقنية، وهذا ما سينمّي الصناعة، ويقوي الطبقة العاملة، ويُضعف الفلاحين تدريجياً.

بدء التقارب الألماني النمساوي والتوتر الروسي الألماني دفعا روسيا إلى التحالف مع فرنسا وإنكلترا حليفة فرنسا الطبيعية في القارة في مواجهة الدول العظمى. تقديمُ إدارة عبد الحميد الثاني إلى جانب ألمانيا في وسط كهذا، وخاصة بعد الحرب العثمانية الروسية، يشبه إلى حد كبير الاستفادة من ستارة خيال الظل.

لم يكن أمام الإمبراطورية العثمانية سوى الاقتراب من ألمانيا؛ لأنها لن تلجأ إلى إنكلترا وفرنسا بعد فترة الحرب العثمانية الروسية بين عامي 1877-1878، وانتظارها المساعدة منهما طوال فترة الحرب دون أن تأتي، وخاصة بعد مؤتمر برلين، ولأن الليبراليين هناك نهجوا سياسة معادية للأتراك. ينبغي أن نشير إلى هذه الحقيقة التاريخية: كانت صداقة عهد عبد الحميد الثاني للألمان وتأييدهم له سطحيين إلى درجة لا يمكن مقارنتها مع ما جاء بعدها في فترات حكم الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة.

بدأت الصداقة الحقيقية مع الألمان والإعجاب بهم مع حكومات ما بعد المشروطية (الدستورية) الثانية، وخاصة مع حكومة الاتحاد والترقي. لم يؤيد عبد الحميد الثاني سيطرة المدربين والمستشارين الألمان بالمعنى الحقيقي. والأكثر من هذا، كان يعتبر شراء السلاح الألماني أداة تنافس واستفزاز أمام تجارة السلاح الإنكليزي والأمريكي، ويحلم بأن يكون جذب

ألمانيا إليه استعراضاً أمام الروس والمعسكر الغربي، ومجرد ستارة خيال ظل. بكل الأحوال، هناك سلام سري بين الإمبراطورية العثمانية وروسيا. ألكسندر الثالث مستبد، ولكنه أدرك أن السلامَ ضروري لروسيا. رأى أن الحرب مع الإمبراطورية العثمانية لن تفيد، وستُكلّف كثيراً؛ كما حدث في معركة بلفن. يلزم روسيا تحوّل صناعي، وتلزمها مواصلات، وكان هو الذي بدأ بمشروع خط ترانس - سيبيريا الحديدي. كما أن روسيا بحاجة إلى مدارس. الأمور نفسها تنسحب على عبد الحميد الثاني. الإمبراطورية العثمانية بحاجة إلى طرق ومصانع، وتطوير للزراعة، ومدارس. لا بد من الاعتراف بأن عهد عبد الحميد الثاني حقق تطوراً مهماً وخاصة في النقطة الأخيرة.

لنستعرض الآن الوضع الداخلي للدول الكبرى. تُسيطر إنكلترا على جنوب أفريقيا وأغنى مناطق القارة. غير هذا هناك أستراليا، ومن هناك تسيطر عبر الصين على دول كبرى، ويجب ألاّ ننسى بأي شكل شبه القارة الهندية (Indian Subcontinent)؛ وهي قارة تضم باكستان وبنغلادش والهند اليوم، وهي أغنى مناطق العالم وأكثرها سكاناً...

تعتبر الهند الجزء الأهم من التاج البريطاني، وتُتوج فيكتوريا باعتبارها ملكة المملكة المتحدة - أي بريطانيا - وإمبراطورة الهند. على الرغم من حظ الهند العاثر فقد أثّرت على إنكلترا على عكس ما نعتقد أنها مجرد مستعمرة فقط. أثّرت ثقافة تلك القارة القديمة، وطبقاتها المهيمنة، ومواقف دارسيها بالإنكليز بعمق. غير هذا، لم يتخلف المؤَهَلون الهنود عن النهل من منبع ثقافة الإمبراطورية الإنكليزية. ولهذا دور كبير بالتقدم الهندي الذي سيتحقق مستقبلاً؛ أي قفزة الهند اليوم.

لا شك أن استغلال شبه القارة هذه من مصلحة الإمبراطورية الإنكليزية. لدى الإنكليز مستعمرات لا تحصى. هناك جزر الأنتيل. لندع هذا، لديها مجموعة جزر في المحيط. للأسف، لا يمكن القول إن الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس قد انعكست على إنكلترا كما ينبغي. يتألف الشعب الإنكليزي من قوميتين برأي رئيس حكومة فيكتوريا الأحب إليها في القرن التاسع عشر بنجامين ديزرايلي. يقول ديزرايلي: «الملكة فيكتوريا على رأس قوميتين: الفقراء والأغنياء». الغريب أن هذه الحكومة المحافظة بدأت ببعض الإصلاحات الاجتماعية. نجاح إنكلترا الأساسي هو إقرار ديزرايلي مشروع قناة السويس الذي كان مشروعاً فرنسياً أصلاً بقرار اقتصادي فوري وذكي.

يقول بعض المؤرخين: «هزمت الإمبراطورية العثمانية في السويس». نحن أساساً لم نكن في هذا المشروع منذ بدايته. ولكن الأهم هو هزيمة فرنسا

التي أنجز مهندسوها هذا المشروع. وهكذا تُسيطر إنكلترا على البحار؛ إذا وضعنا بعين الاعتبار أنها سيطرت على قبرص بوصفها أهم قواعد البحر المتوسط بعد مؤتمر برلين...

وحكمت بريطانيا العالم، وهي دولة العالم دون جدل في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ولا شك أنها حصلت على هذا اللقب منذ حروب نابليون، واستمرت بحمله. أما فرنسا فقد كانت مستعمِرة لمناطق ترفّعت إنكلترا عن أخذها.

على الرغم من هذا، كانت فرنسا في الربع الرابع من القرن التاسع عشر دولة لامعة. لقد حصل الفرنسيون على أكبر نسبة من جوائز نوبل التي أقرت في القرن العشرين، وهي أم العلوم وخاصة الطب برأي المثقف المصري رفاعة رافع الطهطاوي. لم يصل علم الطب ورعاية المريض إلى التفوق الذي وصلا إليه في فرنسا في أي بلد. كانت فرنسا أجمل دولة أوروبية؛ بغناها وظرفها وثقافتها العالمية التي وصلت إلى الذروة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، إلى جانب فقرها وعدالتها. لعل لغتها لم تكن منتشرة كالإنكليزية وحتى الإسبانية، ولكن معرفة الفرنسية والقراءة بها وتكلمها نقطة مشتركة بين المثقفين العالميين كلهم.

مستعمرات هذا البلد متخلفة وفقيرة جداً مقارنة بمستعمرات بريطانيا، ولكن فرنسا لا تستطيع فرض ما تريده، وإنكلترا أيضاً لا تستطيع فرضه، ولكن بعض الأمور التي لا تريدها فرنسا تنفذ. هنا يكمن الفرق بين هاتين الدولتين على الأغلب. مما لا شك فيه أن إنكلترا دولة صناعية. وفي أواخر القرن التاسع عشر بدأت تظهر فيها بشكل متتابع مدن ذات مليون نسمة.

ظهرت مانشستر إلى جانب لندن، وإلى جانبها برمنغهام، وإلى جانبها يورك بشكل متسلسل كمراكز صناعية، وانخفض عدد سكان الريف البريطاني نتيجة الهجرة إلى 15 بالمائة من مجموع السكان. أما فرنسا فقد شكّل الفلاحون 50 بالمائة من سكانها؛ ليس أثناء الحرب العالمية الأولى، بل عندما دخلت الحرب العالمية الثانية. وهناك تناقض حاد بين ظروف حياة أولئك الفلاحين الصعبة وبريق باريس. لعل هذا التناقض يمنح الجمهورية الفرنسية تجديداً وجاذبية، وهذا ما كان مرغوباً، ولكن الحقيقة أن فرنسا تفقد دورها في أوروبا.

تتقدم الإمبراطورية الألمانية المولودة حديثاً بعد معاهدة فرساي بسرعة على طريق التصنيع. قبل هذا، حققت مملكة بروسيا نجاحاً بالربط بين بحر البلطيق والبحر المتوسط بسككها الحديدية وقنواتها، وكان هذا جلياً:

ألمانيا تتفوق على النمسا من الناحية الاقتصادية، وبدأت النمسا بمحاولة التواؤم مع ألمانيا. ستستمر هذه المرحلة حتى القرن العشرين. وغدت ألمانيا والنمسا اليوم تكاملاً اقتصادياً ثقافياً.

تستمر ألمانيا المولودة حديثاً بدور بروسيا التاريخي؛ فهي تمد يدها إلى ولايات روسيا الغربية، أي مركز النسيج في مدينة وُودج البولونية، والمجر، وحتى الصناعات البترولية الناشئة حديثاً في رومانيا، والغزل والنسيج. هيمنت الثقافة الألمانية على الكثير من المناطق. في الحقيقة، إن الناس في تلك المناطق يعرفون الألمانية أكثر من الفرنسية، وتستخدم الألمانية إلى جانب اللغات المحلية، وتعتبر الألمانية لغة عالمية، ولغة ثقافية. الأكثر من هذا، يتشكل هناك قطاع مصرفي ألماني يتفوق على القطاع المصرفي الإنكليزي المتقدم جداً. وهو قطاع مصرفي فعّال؛ لا يعيش على تقديم القروض، بل يدعم بعض الصناعات الضعيفة والمتهالكة، ويشارك بالصناعة؛ أي إنه يشجع الاستثمار.

يَشْعُرُ النفوذُ الألماني الممتد إلى أوروبا الشرقية، وحتى إلى بلاد الرافدين عبر الإمبراطورية العثمانية أنه بحاجة إلى الدالات « D » الأربعة: « Deutsche Bank, Dresdner Bank, Damstetter Bank, Deutschland Bank »؛ تشعر ألمانيا بالقوة هنا بفضل هذه الدالات.

تجمع هذه البنوك معلومات كثيرة عن المحيط؛ من معلومات عن رؤوس الأموال المنخفضة، إلى معلومات عن الديون العصية على التحصيل. سكك الحديد الألمانية متفوقة تقنياً. بكل الأحوال، لم يَتْرُك قطاع سكك الحديد الفرنسي طرف الخيط في الشرق الأوسط والإمبراطورية العثمانية، وحُكم على الإنكليز بالتراجع في هذا السباق منذ زمن.

وبسرعة كبيرة، وصلت السكك الحديدية المنطلقة من إسطنبول إلى أنقرة وقونية ومناطق لم تعرف السكك الحديدية سابقاً، وخلال فترة قصيرة وصلت إلى منطقة الرافدين. ولو تأخر اندلاع الحرب العالمية الأولى قليلاً لوصلت سكك الحديد إلى بغداد. هنا تدخل الإمبراطورية الإنكليزية - أي البريطانية - وألمانيا في صراع حاد. أما بالنسبة إلى النمسا - المجر في أوروبا الوسطى التي يدعي كبار رجال الدول الكبرى أنهم أثّروا كثيراً على بنيتيهما الثقافيتين، فقد كانت لكل منهما حكومة وبرلمان بحقوق متساوية قبل انفصالهما عام 1860. ليس ثمة ما هو مشترك بينهما سوى آل هابسبورغ تحت إدارة الإمبراطور فرانسيس جوزيف. لهذا السبب يقول النمساويون: إمبراطورنا قيصر، ويصر المجريون على القول: الملك.

بالنسبة إليهم إنه ليس إمبراطوراً، بل ملك المجر. يصطدم البيروقراطيون في ما بينهم. ويتقاسم النمساويون والمجريون الولايات كلها. احتلت برلين البوسنة والهرسك فقط عام 1878 قبل ضمها تحت إدارة مشتركة. ويعيش النورمان ذوو الجذور النمساوية والمجرية حالة توتر شديد. من جهة أخرى، كانت هناك تشيكيا التي تتطور صناعتها وثقافتها وطبقتها البورجوازية. كانت تشيكيا اليوم - أي بوهيميا - تشهد نهضة صناعية كبرى إلى درجة ظهور بورجوازية تشيكية تتعالى على النمساويين. بينما كانت دول العروش والتيجان في هذه الإمبراطورية تحقق نمواً بنسبة 1 إلى 2 بالمائة، هدمت المجر بنيتها الزراعية التاريخية فجأة، وحققت نمواً وصل إلى 6 بالمائة. وكانت مدنها كبيرة ومتكاملة؛ حيث يتبع كل بناء الآخر. رواية أولاد زقاق بال الشهيرة لفرنك مولنار التي قرأناها في طفولتنا تروي صراع أطفال جرحوا بعضهم بعضاً بالحجارة على قطعة أرض من أجل أن يلعبوا فيها. وفي نهاية الرواية، تحاط قطعة الأرض بسياج من الخشب والأسلاك، وتوضع فيها غرف للعمال من أجل إنشاء بناء ضخم.

وضعُ الطبقة العاملة في النمسا والمجر سيئ جداً. غالبية أولئك العمال يعيشون في ما يسمى ثكنات الإيجار؛ وهي أبنية ذات غرف متجاورة، تسكن عائلة في كل غرفة، وشروطها الصحية غاية في السوء. فوق هذا، هي غالية جداً إلى درجة أن بعض العائلات تضطر لإسكان عامل أعزب معها. الطبقة النمساوية العاملة كانت قلقة جداً بسبب انخفاض الأجور. وظروفها المعيشية سيئة جداً. قبل الحرب العالمية الأولى، كان نصيب واحد من عشرة أشخاص غرفة في دولة مثل النمسا. وكانت هذه النسبة في إنكلترا وألمانيا اثنين أو ثلاثة في غرفتين. مما لا شك فيه أن قطاع الزراعة المنهار غدا مشكلة. الدولة الكبرى الأخرى روسيا أيضاً حققت تطوراً كبيراً في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ولكن هذا التطور لم يحلْ دون بقائها دولة زراعية ومتخلفة جداً عن الدول الأخرى. علينا ألا ننسى أنها دخلت الحرب العالمية الأولى بنسبة أمية تصل إلى تسعين بالمائة. بالطبع ليس ثمة ضرورة للقول إن المثقفين الذين ظهروا من بين العشرة بالمائة كانوا روّاد الأدب المتنوّر للعالم. الصناعة تستغلّ العمال بأسوأ الظروف. وهذا ما يفسر لنا ظهور الحركة الاشتراكية فيها على الرغم من وجود نظام محافظ وأرثوذكسي متدين.

أُسكدار حي في العاصمة العثمانية

كانت أُسكدار تسمى لدى اليونانيين القدماء والهيلينيين والروم المدينة الذهبية (Hrisopolis). لم تكن منطقة مزدحمة مثل قاضي كوي (Chalcedon) المجاورة لها على ما يبدو. الغريب في الأمر أن أُسكُدار هي المكان الأول الذي سكنه الأتراك في إسطنبول، لأن هذه الأرض انتقلت إلى سيطرة العثمانيين في عهد بيازيد الصاعقة كما هو معروف. ولكن الغريب أيضاً أن البيزنطيين يدّعون حقهم بحكمها على الرغم من عدم مغادرة الأتراك لها مطلقاً قبل الفتح. في هذه المدينة غريبة التداخل، أي المختلف على إدارتها وحكمها عاش الطرفان المتنازعان بوئام تام بعد أن أقاما فيها. يشير الرحالة بيرتراندون دي لا بروكويير (Bertrandon de la Brocquière) - مر بالأراضي العثمانية في ثلاثينيات القرن الخامس عشر - إلى أن الزوارق كانت تأتي من الطرف المقابل أثناء عبوره من أُسكدار إلى إسطنبول. أي إن هناك انتقالاً دون جمارك أو تأشيرات. هذا يعني أن التبادل التجاري والتمازج بين البيزنطيين والعثمانيين كان يتم بسلاسة أكبر مما يجري اليوم في السوق الأوروبية المشتركة أو بين أعضاء الاتحاد الأوروبي. اسم أُسكدار مخاتل جداً. فهو يُلفظ في اللغات الأجنبية « Skutari ». ولكن الاسم نفسه يطلق على إشكودرا في ألبانيا، ويطلق بعض المهندسين العثمانيين على إشكودرا في ألبانيا اسم أُسكودار الأرناؤوطية، أو أُسكدار فقط. لذلك يجب ألا نخلط بين الاثنتين.

ما هي أُسكدار؟ إنها واحدة من أكثر المناطق حيوية وحباً للأدب التركي عموماً والأدب الإسطنبولي خصوصاً. اختفى الزمن القديم، واختفت المنازل الخشبية وسط الخضرة خلف جامع ميهريماه اليوم، ولكن أُسكدار تبقى المنطقة الأكثر جاذبية بعد الفوضى التي اعترت بيه أوغلو وشواطئ البوسفور. يرى الإنسان أنه دخل إلى وسط مختلف؛ وسط زخرفة عثمانية. مطبخها مناسب لها. سأقول هذا فقط: برأيي، إنها المنطقة الأكثر عناية بالطعام في إسطنبول كيفما أكلته جلوساً أو مشياً، رخيصاً أو غالياً. أي إن سكان أُسكدار لا يأكلون طعاماً سيئاً، ولا يعجبهم أي شيء. هذا مجرّب. في الحقيقة، إنها المكان الذي يمكن قصده بين فترة وأخرى. عندما تذهبون إليها من البحر يظهر أمامكم الجامع الذي بناه المعماري الشهير سنان الكبير من أجل ميهريماه ابنة السلطان القانوني.

استُخدم في ذلك البناء الغريب جداً أسلوبٌ مختلفٌ تماماً عن أسلوب

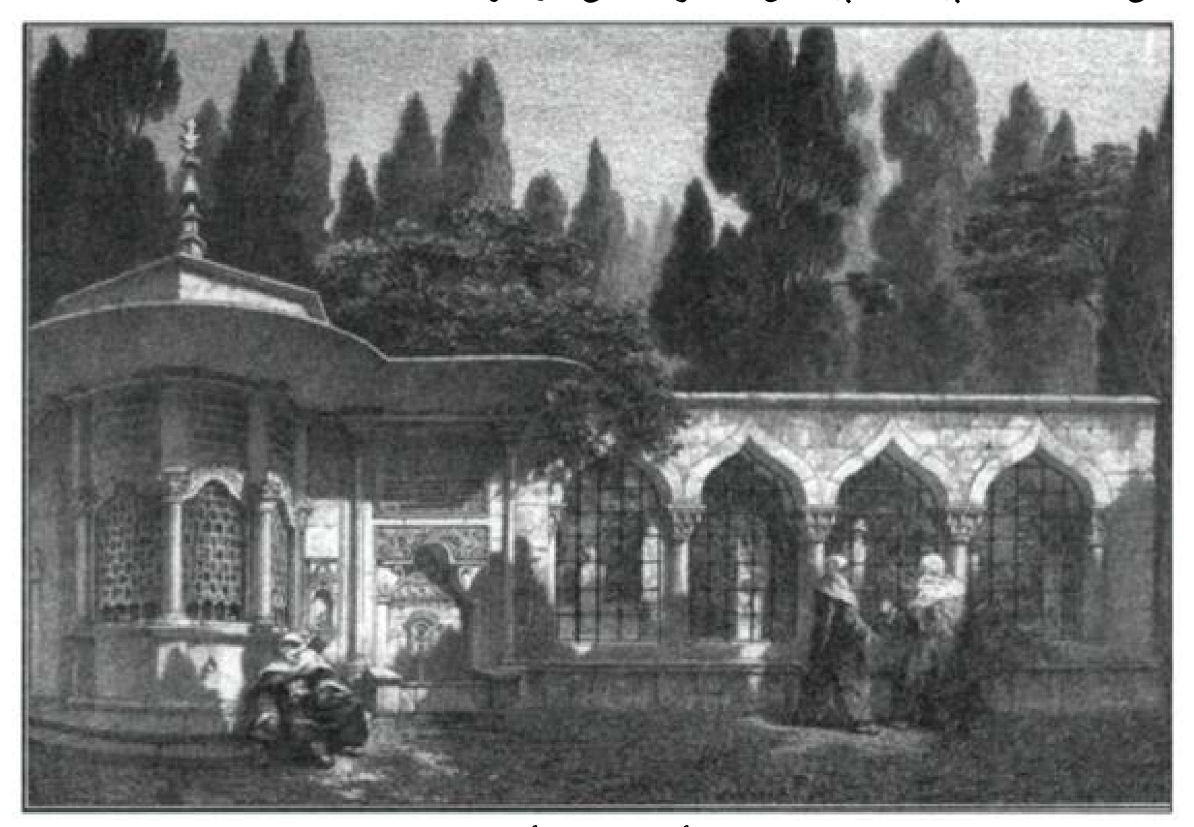
جامع ميهرماه الذي يشكل جزءاً من كلية (جامع ومدرسة) السلطانة ميهرماه في أدرنة قابِ (باب أدرنة). ولكن الوضع الناجم لدينا هو: إن دخلتم من أوروبا عبر باب أدرنة، أو دخلتم من الأناضول فسيستقبلكم جامع السلطانة ميهرماه. في الحقيقة، كانت هناك ساحة واسعة أمامه في أُسكدار، وتبدأ طريق القوافل منها. تحط القوافل رحالها في أُسكدار قليلاً، وتستقبل السلطانة ميهرماه القادمين بجامعها.

إحدى آيات الجمال في المدينة أيضاً سبيل أحمد الثالث أمام الجامع. فيه خط رائع. وإذا كان هناك تشابه بالأسلوب المعماري بين سبيل أحمد الثالث الواقع أمام قصر طوب قابِ (باب المدفع) وسبيل أحمد الثالث الواقع أمام جامع السلطانة ميهرماه، إلاّ أنهما ليسا متطابقين بالطبع. الأمر الأغرب أن سبيل أحمد الثالث في أسكدار بقي إلى أواخر القرن التاسع عشر، وحتى مطلع القرن العشرين في مكان يكاد يُلمس باليد من البحر. أما اليوم فقد مُلئت الساحة. لهذا السبب، فقدت الساحة الجميلة أهم خصوصياتها. عندما ننظر إلى الطرف المقابل نرى خزاناً يمتد إلى أمام جامع شمسي باشا الذي يقال إن الطير لا يحط عليه من جهة، وإلى حيث مرسى المراكب السريعة من الجهة الثانية. برأيي، إن هذا أكبر خزانات تركيا وأقربها إلى القلب، هل تستطيعون تصور هذا؟ كأن المكان الذي يقرّب القارتين من بعضهما خزانٌ كبيرٌ بجمال أسلوب الباروك.

هذان الجامعان الواقعان على شاطئ أُسكدار يمنحان المدينة جواً مختلفاً تماماً. عندما نتقدم قليلاً، يقابلنا الجامع الذي أمرت ببنائه السلطانة غولنوش أَمَةُ الله (رابعة). إنها حظيّة السلطان محمد الرابع المعروف بين الأهالي باسم السلطان محمد الصياد الذي ليست له أهمية في الحياة السياسية العثمانية وتاريخها على الرغم من انتمائه إلى الأسرة المالكة، وزوجته الأحب إلى قلبه، والتي اشتاق إليها فترة طويلة، وكانت سلطانة والدة طوال فترة الحاكمين أحمد الثالث ومصطفى الثاني خلال العصر الزنبقي. من المعروف أنه حسب البروتوكول الإمبراطوري لا تُنادى سلطانة والدة سوى والدة السلاطين، وتُمنح لقب سلطانة. لا تُلقب زوجات السلاطين بسلطانات لأنهن لا ينتمين إلى الأسرة المالكة. ويجب أن تكون زوجة السلطان والدة سلطان لتنادى سلطانة. هذا مهم.

لم تتدخل السلطانة غلنوش أمة الله بشؤون الدولة، وتربت على هذه الخصوصية من قبل حماتها السلطانة خديجة ترهان بشكل خاص، جعلت الحرم يهتم بالفن وأعمال الخير، وكانت منضبطة وجميلة إلى أقصى الحدود،

وتتقن آداب القصر وقواعده. يقع قبر السلطانة غولنوش أمة الله ضمن سور جامعها الذي يعتبر من روائع القرن الثامن عشر. كأن الوردة المقطوفة على شاهدة قبرها تعبّر عن الحزن على وفاتها.



سبيل مقبرة قراجة أحمد في أ سكدار/يوجين فلادرين

عندما ندخل من الساحل، نرى جامعَ شمسي باشا الظريف كعلبة مجوهرات يعكس أسلوب سنان الكبير. ويُقال عنه: «لا يحط عليه الطير». هذا يعني أن النوارس والطيور الأخرى لا تستطيع أن تحط على مآذنه بسبب شدة الريح. عندما ننظر من علٍ إلى ما يتواجد خلف هذا الأثر الكلاسيكي الصغير والجذاب والآسر، نرى جامع محمد باشا الرومي الذي يحمل خصوصية القرن الخامس عشر النموذجية، ويحمل الخصائص المعمارية لعصر باليولوجوس (Paleologos) المتأخر.

مما لا شك فيه أن «محمد» باشا الرومي رجل دولة مهم جداً، ويمثل سيطرة الباشاوات المحوّلين دينياً على السلطة. وهو يُثبت خطأ ادعاء المعتقدين أن المحولين دينياً بعيدون عن الترك، وأنهم خونة. لأن العثمانيين إمبراطورية، والإمبراطورية تنشئ رجالها، ولا تترك الأمر للمصادفة. النظام الذي نسميه تحويلاً دينياً (يستخدم اليوم بمفهوم خاطئ جداً وأسلوبٍ يشوّه تقاليد الدولة لدينا. يؤخذ الأولاد الأذكى من بين الأغرار في ثكنات الجيش النظامي ليحولوا دينياً من أجل إدخالهم إلى مدرسة القصر، وينشأ هؤلاء

الأولاد بشكل جيد إلى درجة أنهم يتخذون أمكنتهم في بروتوكول الدولة العثمانية. وسرعان ما ينسون لغة المكان الذي أتوا منه، وتربيتهم الدينية لأنهم يجلبون على الأغلب من مناطق نائية لا طير فيها يطير ولا وحش يسير. لا يبقى في ذاكرتهم سوى المكان الذي أتوا منه وعائلاتهم. وهم يستطيعون الاتصال بعائلاتهم في ما بعد إذا أرادوا. ويغدون عثمانيين تماماً، ويصبحون مسلمين، ولا غبار على إخلاصهم. الطموح الشخصي وبعض حالات الفساد لا تنسحب على النظام كله بالطبع. هذا هو أسلوب تنشئة الإداري العثماني وعسكرييه الخاص، ويُرى في الإمبراطوريات الكلاسيكية كلها. انظروا إلى التناقض، فكروا بالصراع بين محمد باشا هذا وخليل باشا تشاندارلي ابن إحدى العائلات النبيلة المحلية، بل وآل تشاندارلي.

من هو أحمد باشا شمسي الذي سُميت المدرسة الدينية الواقعة على الساحل باسمه؟ إنه ابن أسرة قصطامونية نبيلة، وهو حفيد أحمد بيك الأحمر أحد أبناء آل إسفانديار، أي إنه ليس محولاً دينياً. هذا يعني أن هناك استثناءات في القرن السادس عشر. يرى بعض المؤرخين أن أحمد باشا شمسي عوّد مراد الثالث على الرشوة، وكان أول دودة نخرت جذر شجرة الدولة. ويقولون إنه انتقم لأسرته، وقد فسّخ أبناؤه الدولة العثمانية. ما هو معروف هو أنه رجل ذكي جداً.

إذا سرنا في أسكدار نحو بحر مرمرة قليلاً، فسنرى على القمة جامع مصطفى الثالث المسمى جامع أياظما. يُطلق اسم سلطان السلاطين مصطفى على لؤلؤة القرن الثامن عشر تلك. وقد أمر بصيانة شاملة لجامع الفاتح بعد الزلزال، وطبعاً سيسمى باسمه. يسمونه أيضاً أياظما. خصوصية جامع أياظما تكمن في وجود أقفاص طيور حجرية بمنتهى الغرابة. وهناك قبور لكبار ضباط القصر وأغوات السلاح، وضباط آخرين في باحته، وهذا أمر نادر. رؤوس شواهد تلك القبور غريبة ونادرة.

الجامع المسمى ذا الخزف هو الجامع الذي أمرت السلطانة كوسم ببنائه في أسكدار عام 1640، وهو مكان فريد للتأمل. تعرفت الخاسكي (الحظية) الشابة على السلطان أحمد وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وعاش هذان الشابان عشقاً يشبه عشق روميو وجولييت حقيقة، وكان وصالهما مثل وصال روميو وجولييت. إنها قصة حزينة تعود فيها السلطانة كوسم إلى قصرها القديم بعد وفاة السلطان الفنان أحمد الأول، ثم تعود ثانية إلى القصر باعتبارها سلطانة والدة بعد جلوس ابنها مراد الرابع على العرش.

بعد ذلك، تغيّرت حياتها وأعمالها وطباعها. خلال فترات تأملها تذكرت زيارتها بصحبة زوجها لعزيز محمود هدائي مؤسس الطريقة الجلجلوتية الذي يحترمه سلطان السلاطين إلى أبعد الحدود، ويقبّل الناس يده، وعلى ما يبدو هذا ما جعل أسكدار ذكرى مهمّة بالنسبة إليها.



كلية السلطانة ميهريماه/توماس أللوم

بُني جامع الوالدة السلطانة الآخر في أسكدار على اسم السلطانة نوربانو، وهو معروف باسم جامع الوالدة العتيق. استخدم جزء من كليّة هذا الجامع ليكون سجن باشا قابسِ (باب الباشا)، وكانت ثمة ثانوية عسكرية بجانبه. تمت المحافظة على الجامع، ورُمم. جامع الوالدة العتيق مكان يمكن الدخول منه إلى محيط يُستمتع فيه بالفرجة على فن الخزف وأسلوب عمارة القرن السادس عشر. نقول «الاستمتاع بالفرجة» في سياق الكلام؛ لأننا يجب أن نخجل من الكوارث التي حلت بهذا الجامع. بداية، أَمَرَ أحدُ المعتقدين أنه يحبُّ الفن بإزالة الجداريات الخزفية الرائعة العائدة إلى القرن السادس عشر، وأفسح في المجال لسرقتها. وعندما أعيد تركيبها بعد أن قبضت الشرطة عليه، بدت أمام أعيننا مثل قلب جريح. لا ندري كيف حدث ذلك مرة أخرى، إذ دخلت مجموعة من مدّعي حب الفن والآثار، وسرقت شمعدانات الجامع. إذا لم يعمل مواطنونا؛ أهالي ذلك الحي على حماية تلك الآثار فليس ثمة أمل نهائياً.

مقبرة قراجة أحمد الممتدة على مساحة واسعة من بين الأمكنة التي أعطت حي أسكدار شخصيته، وجعلته يستحق الفرجة. يجب أن تكون رؤية شواهد القبور في مقبرة قراجة أحمد، وقراءة الكتابات المنقوشة عليها، والفرجة على اللفات التي تعتليها عملاً بحد ذاته. للأسف، هذه أيضاً تفقر من يوم إلى آخر بسبب مخططات الفرز السيئة قديماً، ثم تخريب اللصوص لها، وكأن جمع بعض المتعهدين لها، وتكسيرها لصنع حصى لا يكفيان. نسأل متى سنضع عقولنا برؤوسنا.

أسكدار القديمة تعني جوامع السلطانات الوالدات، وبنات سلاطين السلاطين، وثلاث زوايا، ومقبرة قراجة أحمد. بإنشاء ثكنة السليمية في القرن الثامن عشر أعطي حي أسكدار بعداً دنيوياً. مما لا شك فيه أن ثكنة السليمية التي أُنشئت في القرن الثامن عشر وتحدد حدود أسكدار بناء مثالي؛ ليس على مستوى الإمبراطورية العثمانية فقط، بل على مستوى أوروبا كلها. إنها بناء من تيار الباروك الفني، وتحمل اسم سلطان السلاطين، واستخدمت كمستشفى أثناء حرب القرِم كما نعلم جميعاً. خدمت فلورنس نايت إنجل فيها. استخدمت الثكنة كسجنٍ في العصور اللاحقة. ولكن، علينا أن ننسى كل هذا، وننظر إليها باعتبارها كتلة جميلة تزين مدخل البوسفور ومرمرة. لم تَمُتْ العمارة العسكرية بالمعنى الحقيقي في تركيا، وستعيش بشكل دائم.

أسكدار حي إسطنبولي بآثاره التاريخية ونسيجه. وهو غير معروف كثيراً، ولكن يجب أن يعرف أكثر، ويحافظ عليه، ويُدْرس.

أسكدار حي شهير بتكاياه أيضاً. تكيّة الأوزبك في سلطان تبة واحدة من ثلاث تكايا، وأفخمها، يقصدها شيوخ المدينة، ويعرج عليها الحجاج القادمون من بخارى وآسيا الوسطى في طريقهم إلى الحج، وينـزلون فيها. أذكر تكية الأوزبك لأنني من سكان الحي، فهو حي يُسكن فيه بطمأنينة، ويضم آخر مساحة خضراء.

طبعاً الدور التاريخي الأساسي لتكية الأوزبك كان في مرحلة الهدنة. فقد كانت النقطة الرئيسة التي يلجأ إليها شيوخُ إسطنبول ومثقفوها الذين دعموا معركة الاستقلال من أجل الانتقال إلى الأناضول. وقيام تكية الأوزبك بمهمتها هذه بصمت على الرغم من أن كل مركز من المراكز المشابهة داهمته قيادة الاحتلال الإنكليزي، وخربته يرينا إلى أي مدى كان القائمون على هذه التكية كتومين وحذرين وعارفين لمحيطهم.

وإذا كانت المخابرات الإنكليزية قد كشفت المكان في وقت متأخر،

فهي لم تتمكن من القبض على أحد. بعد أن أغلقت التكايا والزوايا كان الشيخ نجم الدين أفندي يجمع موسيقيي المدينة وأوساطها الأدبية هنا في أيام محددة في منتدى.

بالطبع ما يُحكى لدينا يتبخر، ولا توجد أي معلومة مكتوبة راسخة. ما زال أولاد نجم الدين أفندي يعيشون اليوم في قسم سلاملك/استقبال التكية. وفي الحقيقة، إنّ حديثهم لا يُشبع منه حتى لو كانت لقاءاتنا نادرة. تكية الأوزبك من النقاط الإسطنبولية التي يجب المحافظة عليها مع بيئتها.

سادة بيه أوغلو وفنار في العصور الماضية

بقي بيه أوغلو غلاطة... واحداً من الأجزاء الثلاثة الأهم في إسطنبول حتى عام 1970. أي إسطنبول داخل السور، وأيوب جوار الخليج خارج السور، وأخيراً بيرا المسماة بيه أوغلو وغلاطة، وأسكدار من العهد البيزنطي. وإسطنبول كبيرة جداً؛ إلى درجة أن هذه المدن الثلاث التي كانت تسمى البلدان الثلاثة وصلت إلى درجة لا تساوي شيئاً أمام كِبرها. وغالبية أهالي إسطنبول اليوم لا يعرفون إسطنبول أو أيوب أو أُسكدار جيداً. ولكن بيه أوغلو معروف حتى اليوم. لأن بيه أوغلو هو الحي الذي يرمي الإسطنبوليون أنفسهم إليه مهما كان وضعهم. ولكن الجانب الغريب في الأمر هو أن غالبية الذين جاءوا إلى إسطنبول في السنوات الأخيرة، وسكنوها لا يعرفون جوامعها ولا بيه أوغلو فيها.

ما هو بيه أوغلو؟ كان يسمى في العهد البيزنطي بيرا/ Pera ، وهي تعني المقابل. إنه مكان سكن فيه أناسٌ أتوا من بعيد ولا علاقة لهم بحياة المدينة وبنية الدولة، ويُرون أنهم Pera /مقابل. لم يكن البيزنطيون يحبون هذا المكان، وكانوا ينظرون إليه بشك مثلهم مثل الإسطنبوليين في العهد العثماني... يقيم القادمون من وراء البحار من جنويين وبندقيين وجنوب إيطاليين وحتى أسبان كتالونيين في هذا المكان من المدينة. يتغير العنصر الطاغي على بيرا عبر الزمن، فقد كان البندقيين ذات فترة. نهبت المدينة -أي بيرا- نتيجة صراع كبير عام 1185 مع سكان المدينة الأصليين. وانتقموا لهذا بشكل سيئ عام 1204. قبل ثمانية قرون، أي عام 1204، لم تكن وجهة الحملة الصليبية الرابعة هي القدس، بل إسطنبول. نهبت المدينة التي سيطر عليها اللاتينيون، وصارت البندقية سيدة بيرا.

لم تستمر هذه السيادة أكثر من خمسين سنة. وعندما استعاد البيزنطيون وحكامهم المدينة بعد انسحابهم إلى إزنيك، طردوا اللاتينيين من بيرا. طردوهم، ولكن ماذا حدث؟ هل سكنوها هم؟ لا. أخيراً، بعد عام 1453 أعيد تنظيم بيه أوغلو. لم تعد للجنويين ولا للبندقيين. ولكن شعباً جاء من أوروبا الغربية ومن وراء البحار، وإيطاليا ما زال يقيم فيها، كما بدأ مسيحيون محليون يقيمون فيها أيضاً. الأمر الأغرب هو جلب القراي - أي اليهود الأتراك - إلى هنا بموجب وثيقة عهد بعد أن ضُمت القِرم. أُسكن اليهودُ والمسلمون المنفيون من إسبانيا وإيطاليا عام 1492 في هذا الجزء من الحي أيضاً. الحقيقة أنه سكن إلى جانب هؤلاء في (قرة

كوي/القرية السوداء) وهي بالأصل (قراي كوي/قرية يهود قراي) عرب إسبانيا المسلمون، الأندلسيون. أقول عرب إسبانيا، ولكنهم الأندلسيون القادمون حديثاً إلى إسطنبول، حتى إن الكنيسة الكبرى في منطقة الأخوة الدومنيكان والفرانسسكان أعطيت لهم. يقع البناء المبني بأسلوب عصر النهضة الإيطالي والمعروف اليوم باسم الجامع العربي بجانب برشمبة بازارِ (سوق الخميس). ونرى أن اليهود بعد فترة توسعوا إلى هاص كوي، وشكّلوا هناك طائفة ومقاطعة. كانت هناك عائلات شهيرة: دوريا، أوقارجي، بوثيغة، أورلاندو، أدورنا... بعضهم عاشوا في هذه المدينة منذ عصور. مثلاً ينحدر كبير مترجمي السفارة الألمانية بارون دي تستا من هذا النسب.

يعمل الأجانب غالباً وليس الأتراك بالترجمة في السفارات. لأن أعمال الترجمة في الباب العالي يقوم بها سكان الطرف المقابل؛ الهيلينيون بقايا الأرستقراطية البيزنطية الذين نسميهم سادة فنار. امتلأت بيرا بالسفراء الأجانب خلال فترة قصيرة. لم يكن لدينا سفراء مقيمون حتى القرن السادس عشر سوى الطليان. مثلاً كان قصرُ البندقيين يقع في بهتشة قابِ (باب الحديقة)، ويسمى البيت ذو الأسود، وقد زال البناء، وأقام أولئك في فنار في ما بعد، وهذا أزيل في عملية التنظيم التي جرت عام 1980 كما هو معلوم.

أقام البندقيون سفارتهم خلال القرن السادس عشر في البناء المدعو Venezia Palazzo . يقع هذا البناء الآن بكل أبهته في زقاق القبطان طومطون في بيه أوغلو. ولهذا البناء أيضاً قصة مؤلمة جداً. عندما انهارت جمهورية البندقية باحتلال نابليون لها، أعطي هذا البناء للفرنسيين بموجب اتفاقية كامبيو فورميو (Formio Campo). عندما هُزم نابليون أُعطي البناء للنمساويين بموجب اتفاقية فيينا لعام 1815. في هذه الأثناء، حصلت إيطاليا على استقلالها، ودخلت البندقية ضمن بنيتها، ولكن السفارة بقيت للنمسا - المجر. وعندما نزل الطليان إلى المدينة عام 1919 استعادوا البناء، وهو من حقهم، وطردوا الهيئة النمساوية منه. لم يُقم الإيطاليون كثيراً في بناء السفارة الذي أنشأوه في إسطنبول، وأعطونا إياه قبل خمسين سنة. اليوم هو المعهد التقني للفنون النسوية في ماتشكا. يبدو أن وظيفته قد تغيرت. يستخدم الطليان هذا البناء في زقاق القبطان طومطون في إسطنبول قصراً للسفارة.

مما لا شك فيه أننا أمام حالة غريبة جداً. قبل كل شيء، هناك مدن موانئ بحرية في كل مكان من العالم يسكنها أجانب. هناك مدن

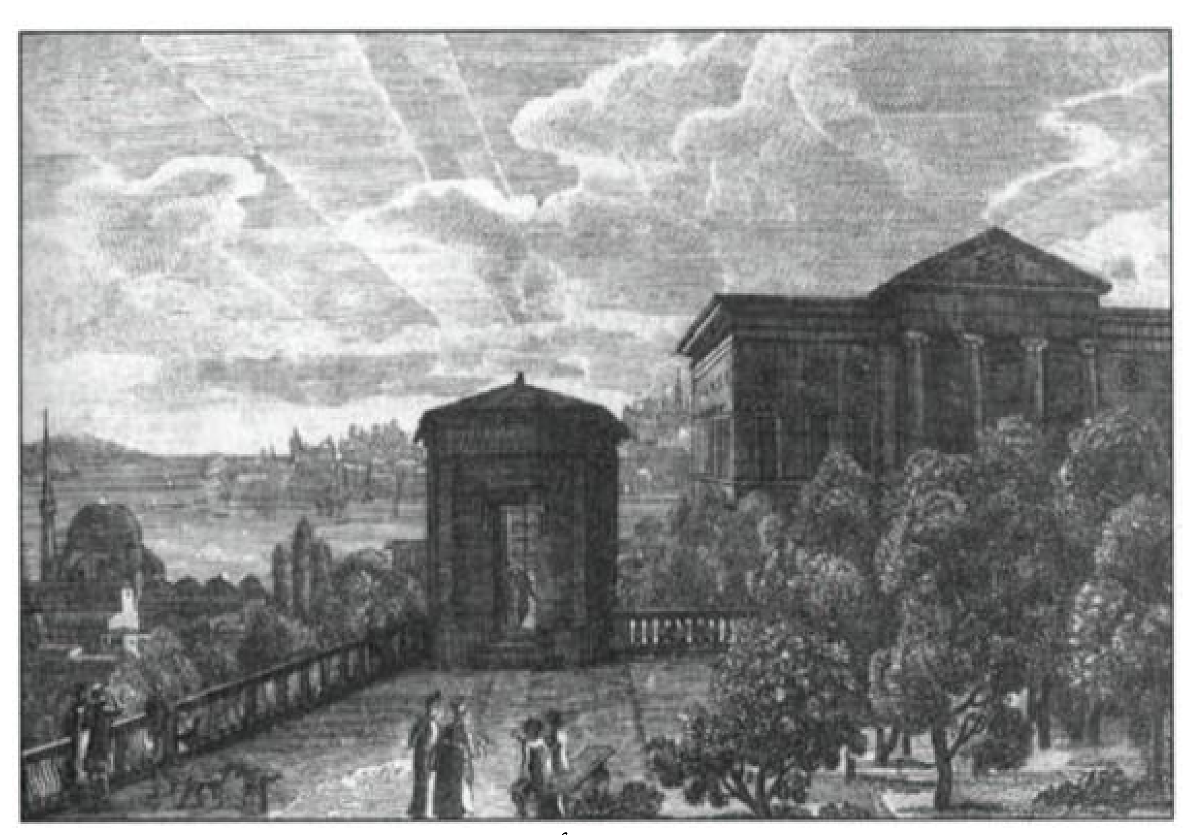
موانئ بحرية في الصين - شنغهاي، هونغ كونغ - وفي الهند أيضاً. سلابودا موسكو القديمة أيضاً على هذا النحو. حسنٌ، ما الذي يجعل بيرا ذات معنى؟ لم تقتصر على وجود التجار والبحارة فقط، بل كانت فيها سفارات المدينة كلها. وهذا ما أكسب المدينة أناقتها على الأغلب. تقع السفارة الفرنسية إلى جانب سفارة البندقية، وهناك محكمة الإذعان (Capitulation) في أول زقاق القبطان طومطون. وكانت السفارة البولونية في المكان الذي تقع فيه السفارة الفرنسية. وتقع السفارة البريطانية الرائعة على مقربة منهما. ولكل من بلجيكا ورومانيا واليونان من الدول الأوروبية سفارات على مقربة أيضاً أسستها في ما بعد. لم تجد السفارة الألمانية مكاناً لها إلا في «غوموش صويو». ولم تفتح اليابان سفارتها إلا بعد الحرب العالمية الأولى وانتهاء الهدنة وتأسيس الجمهورية، ولكن لسبب ما تأسست في إسطنبول وليس في أنقرة. ولم تنقل إلى أنقرة إلا بعد عام 1935.

المؤسسات والبنوك التي تشرف على السفارات ونشاط الميناء من جهة، والحياة الاقتصادية للإمبراطورية العثمانية من جهة أخرى، مثل البنك العثماني (Ottomane Banque)، والبنك التجاري الإيطالي (Italiano Commerciale) تقع في شارع فويفودا المسمى اليوم شارع البنوك. لدى بعض العائلات الغنية ذات الجذور الفرنسية أو الإيطالية أو النمساوية وتعمل في التجارة منازل مترفة هناك. ومن الممكن رؤية السفارة الأمريكية، وعلى مقربة منها السفارة الإنكليزية في منطقة بيرا، أي في الزقاق الذي يوجد فيه فندق بيرا (Palas Pera).

من جهة أخرى، هناك كنيستا القديس أنطونيو والقديسة ماريا درابريس، وعلى مقربة منهما كنائس الكاثوليك الكبرى، وكنيسة القرِم البروتستانتية، وكاتدرائيات. إضافة إلى هذه الأمكنة، هناك المخازن الشهيرة الكبيرة والصغيرة التي تبيع البضائع المستوردة من الغرب. ومن الفنادق ليس بيرا (Palas Pera) فقط، بل هناك فندق لندن الكبير الأقدم، أو فندق طوقاطليان أحد الفنادق الحديثة الأولى، ومقاهٍ ومحالّ حلويات ومعجنات ومقاهي غناء (chantant café) تجعله عالماً مختلفاً. مما لا شك فيه أن المغنين القادمين من الغرب إلى هنا من الدرجة الثالثة، ولكن مغنين من الدرجة الأولى يأتون أحياناً. وقد أتت سارة برنار إلى إسطنبول التي أحبتها عدة مرات. وكان المؤلف الموسيقي الشهير فرانز ليست أحد الذين زاروا إسطنبول. ولم ينقطع المغنون عن زيارتها. كان سكان هذه المنطقة من المدينة يدعون الفِرَق التي تعرف اللغات الأجنبية، وخاصة هذا النوع من

الفنانين والفِرَق. وتباع هنا أيضاً إصدارات الصحافة الأجنبية. كانت الصحف الفرنسية أكثر ما يباع في إسطنبول ذات زمن. ومع مرور الوقت تخلت عن ذلك لصحف أخرى.

ها هو بيه أوغلو... لا يُعرف حتى لماذا يطلق عليه اسم بيه أوغلو/ابن السيد. ترى، هل رسخ الاسم لأن أحد منسوبي السفارة الإيطالية أو الأرستقراطيين هناك كان يطلق عليه بيه أوغلو/ابن السيد؟ أم إن هناك اسماً آخر؟ دخلت ثانوية غلاطة سراي هناك حيز العمل في ستينيات القرن التاسع عشر باعتبارها مكتباً سلطانياً/مدرسة ثانوية، ولكن المعروف أن هناك مدرسة غلاطة سراي قبلها، أي إنها إحدى مدارس القصر السلطاني، واسمها غلاطة... ماذا تعني غلاطة؟ هل تعني حليباً؟ ترى، هل كان ثمة حظائر بقر هنا، ولهذا سميت بهذا الاسم؟ ثمة أسماء كثيرة، ولكن ليس في جذر أي منها مفردة بمعنى التنوير. ولكن هذا أمر جلي: بيرا هي باب الإمبراطورية العثمانية المفتوح على الغرب وطراز الحياة الغربية. اللهو والمواد الاستهلاكية والطعام هنا لا تشبه اللهو والمواد الاستهلاكية والطعام في أي مكان آخر. إذ لم يكن سوى جزء من سكان إسطنبول الأتراك يعرّجون على هذا المكان؛ فقد كانوا يأتون إليه من أجل تسوق مواد باهظة الثمن أو اللهو. مما لا شك فيه أن ثمة أماكن مفتوحة على الثقافة الغربية في بيه أوغلو، ومكتبات... ولكن علينا ألا نغوص عميقاً في الحنين. بيه أوغلو اليوم مرتبط أكثر بالعالم الغربي. فوق هذا، لم يعد سكانُه وزبائنهُ ومحبوه قادمين من الغرب، وتجاراً يقيمون في الموانئ أو معجبين به كما كانوا قديماً. ولم تعد المكتبات تقدم لهم الخدمة. بيه أوغلو اليوم منطقة مبهرجة أكثر من مراحله كلها، ويعكس حياة البلد على الأكثر. ينبغي ألا ننسى هذا.



السفارة الفرنسية في بيه أوغلو (القصر الفرنسي)

حسب أولى الوثائق بعد الفتح، كانت بيرا محاطة بالأسوار. تحيط تلك الأسوار بما يسمى اليوم طوبهانة/مكان صب المدافع، قرة كوي، وبرشمبة بازارِ، ومن المحتمل أنها تنتهي عند ترسهانة/حوض بناء السفن. على الرغم من أن اسم عذاب (جنود المهمات المختلفة في الجيش العثماني) يُطلق على الباب الواقع عند أول جسر أتاتورك، وعلى الجامع - وهو مستمد من اسم جنود المهمات الذين يعملون في حوض بناء السفن - إلا أنهما بنيا بأموال الصدر الأعظم الكبير محمد باشا صوقولو. والمعماري الذي بناهما كما سيعرف الجميع من النظرة الأولى لأسلوبهما هو المعماري سنان الكبير. وتمتد هذه المنطقة إلى شيشهانة في الأعلى. وتعرف شيشهانة اليوم باسم مبنى دائرة البلدية السادسة. إن البناء المعروف باسم بلدية بيه أوغلو هو البناء البلدي الأول الذي أنشئ في الإمبراطورية العثمانية تقليداً للغرب، وحتى إنه أول بناء يضم تنظيماً بلدياً مهماً. واسمه أيضاً تقليدٌ مباشر، لأنه لا يوجد ما يشير إلى علاقة بالسادس في منطقته الجغرافية، فقد أخذ اسمه من المنطقة السادسة الباريسية الراقية. وشارع بيويوك خندق (الخندق الكبير) يشير إلى أن السور كان يمر من هنا.

يلفت السجل الذي أعدّ بعد فتح إسطنبول مباشرة النظر إلى وجود الأرمن والروم واليهود هنا إلى جانب الإيطاليين والصقليين والأوروبيين. وفي

الحقيقة، إن المجموعة التي نسميها «لاتينية» ليست قومية، بل «طائفة»، وكان يُمثلها لدى الباب العالي حقوقي. وأهم السفراء الأوائل في القرن السادس عشر يأتون من هؤلاء بعد الإيطاليين، أي إن الذين يحظون بامتياز الإقامة في ملاحق الكنيسة الكبيرة هنا يدخلون شجاراً يشبه شجار غرف الغسيل من أجل الحصول على تمثيل إمبراطورية روما الجرمانية المقدسة التي نسميها النمسا، وتمثيل المملكة الفرنسية. كان سكانُ بيرا المحليون يضحكون فقط وهم يشاهدون هذه الحوادث الغريبة. ولكن الصدر الأعظم أمر بإغلاق باب الكنيسة يوم الأحد لمنع هذه المشاجرات، ولم يأتِ الدكتور بيسن (Peysen) لأنه على علم بهذا، أما الفرنسي فقد جاء ولكم الباب محدثاً شغباً. بكل الأحوال، إنّ بيرا القرن السادس عشر كانت تستمتع بأيامها بأحداث من هذا النوع. أقام إدوارد بارتون أول سفير ترسله الملكة إليزابيث في بيته الذي استأجره - من المحتمل أنه فوق طوبهانة - حفلاً صاخباً بموسيقى وغناء ولهو ورقص، فاشتكى عليه الجيران، وطرد من بيته لأسباب أخلاقية.

مما لا شك فيه أن أحكام الإعفاءات الدبلوماسية التي سيتم التوقيع عليها باتفاقية فيينا عام 1815 لم تكن مطبقة في العاصمة العثمانية. كل سفير من سفراء بيرا لديه فرنه ومخزن الشراب الخاص به. كانوا يشترون ذلك الشراب مدفوع الضريبة. وبعد معاهدة كارلوفجا عام 1699، وبموجب أحكام معاهدة صلح وستفاليا أُتيح للدبلوماسيين حق شراء البضائع معفاة من الضرائب. وصاروا يقيمون مراسم العبادة بالإيطالية والفرنسية في كثير من الكنائس. وهؤلاء لا علاقة لهم بالمسيحيين المحليين. وقد بدأت العبادة اليوم بالتركية؛ لأن المستشرقين الذين أقاموا في إسطنبول بدأوا بنسيان الإيطالية والفرنسية، وبالعودة إلى التركية. بقيت بيرا مدينة أجنبية حتى القرن التاسع عشر. ونحن تسامحنا مع هذه المدينة الأجنبية. مع أن لامارتين كان يقول إنها ريف فرنسي. انظروا كيف يشرح أحد المؤرخين العثمانيين ما نسميه اليوم شارع الاستقلال، الذي كان يُسمى جادة كبير/ Pera du Rue : «إنه شارع طويل دون معنى بطول بطاقات تعريفهم الشخصية، وضيّق مثل عقولهم...». وحين يتحدث عن طول بطاقات تعريفهم، فهو يقصد أهالي المنطقة الذين يحبون تزيينها بألقاب بمعنى أو دون معنى.

لا تُرى المظاهر الأوروبية غريبة في إسطنبول بأي شكل. بالنسبة إلى من؟ بالنسبة إلى الأوروبيين. ولكنها بالنسبة للشعب العثماني غريبة جداً.

كيفما كان فهو باب تغيير. التغيير هو أكبر الرغبات براءة لدى المجتمعات. ولكن، لا يمكن القول إنه يتجلى دائماً بأجمل أشكاله وأصوبها. عاش بيه أوغلو انهياراً مع بدء ذوبان الجماعات القادمة من أوروبا وخاصة من إيطاليا؛ اعتباراً من مطلع ستينيات القرن العشرين، ونتيجة تضاؤل عدد المسيحيين المحليين الناجم عن الزواج المتبادل أو الهجرة. وتجلى هذا الانهيار بسكن المهاجرين من الأناضول فيه، وفقدان بيرا ألوانها السابقة. بالنتيجة، فقد بذلت جغرافية المدينة إمكانياتها بسخاء. دبت الحياة من جديد في بيه أوغلو قبل مرور أربعين سنة، وامتلأ بصالات الفنون والمكتبات. وبدأت أسعار العقارات ترتفع بالنسبة إلى أسعار اليوم. وسكن هناك مثقفون وأغنياء بقدر مثقفي إسطنبول وأغنيائها. ولم تُحددْ حدودُ هذه المدينة التعددية جيداً، ولم تنتهج سياسة ثقافية على هذا الأساس... في الحالة العكسية، سيدخل بيه أوغلو هذه المرة بسطحية من نوع آخر.

á á á

عندما نقرأ التاريخ، نسمع دائماً عن زمرة تدعى سادة فنار، ولم يُقدم أي شرح لها. محبو التاريخ القلائل الذين يتابعون قراءة التاريخ بعد المدرسة يصادفون أسماء من قبيل «إبسيلانتي، مافروكوداتو، أريستارهي» ولكن أحداً منهم لا يتوقف عند مكانة أولئك الأشخاص في الأدب التركي. في الحقيقة، إننا نعرف أنهم مترجمون في الباب العالي. ولكن سادة فنار كانوا يعملون مترجمين إلى الفرنسية في مسرحيات الكاتب المسرحي التاريخي الدقيق السيد جلال مصاحب زادة، ويتكلمون التركية باللهجة الرومية.

هذا خطأ، ولكن هناك خطأ أكبر منه؛ وهو أنه يقال دائماً إنهم نبلاء بيزنطيون أو زمرة خونة دعمت الانتفاضة اليونانية. قسم منهم اختلط مع التجار الأوروبيين الغربيين وسكان غرب المتوسط الذين سكنوا موانئ شرق المتوسط. ولكن زمرة السادة الروم الفناريين دليل دامغ على التصالح الغريب كإرث بشري آل إلى النظام العثماني، وقدموا ما أمكنهم تقديمه حسب حاجة آليات الدولة العثمانية.

سادة فنار هم أرستقراطيون ينتمون إلى طائفة الروم الأرثوذكس. ولكن ليس لهذه الأصالة أي سند حقوقي. وقد ربتهم عائلاتهم ليكونوا في مواقع عالية إما في الدولة أو البطريركية. وبالطبع نجحوا بإنتاج نظام حياة وتعليم مناسبين لهذا. كما بيّنا من قبل، ليس لأحد أو طبقة الحق بوراثة أي امتياز في المجتمع العثماني ما عدا الأسرة المالكة. ولكي يحافظ سادة الفنار على امتيازاتهم هذه، اعتمدوا على الانتباه لتعليمهم ثم إقامة علاقة جيدة

مع الدولة.

لم تكن أيديولوجيتهم قومية في أي وقت، وكانوا مخلصين للدولة، وأوجدوا أسلوباً وثقافة للتعبير عن هذا الإخلاص بشكل مبالغ به. لم تحصل طبقة أو مجموعة على بنية مؤسسية وأسلوب حياة خارج طبقة علماء الدين المسلمين سوى سادة الفنار الروم الأرثوذكس والأرمن الغريغوريين «الأمارة». على الرغم من أننا نسميهم باسم حي فنار، فلا شك أن هؤلاء سكنوا هذا الحي في مطلع القرن السابع عشر مع نقل البطريركية إلى الفنار. وإلا فإن التجار البندقيين واللبنانيين والكتالونيين، والعرب والترك كانوا يعيشون في هذا الحي اللصيق بالسور في العهد البيزنطي. لهذا السبب، إنّ بعض المنازل الرومية التي نهدم حجارتها واحدة تلو أخرى لا تعود إلى العصر البيزنطي كما نعتقد، بل هي آثار عمرانية عثمانية تعود إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

هناك بين عائلات سادة فنار أسرة كانتاكوزينوس النبيلة البيزنطية من جذور ألبانية، وأسرة بوغوريدي النبيلة ذات الجذور البلغارية، وزعماء أسرة بالتازي من نبلاء رومانيا، أو تجار اغتنوا، وأناس وجودهم أغرب من هؤلاء مثل عائلة بتراسيلي ذات الجذور اللاتينية الباقية من زمن الاحتلال الصليبي عام 1204، بقدر ما يوجد من عائلات أرغيروبولو وماوروقورداتو الأصيلة الهيلينية من روما الشرقية القديمة. وأُضيف إلى هؤلاء الإيطاليين من موروسيني في نابولي أمثال مافروويني باشا طبيب القصر الشهير. الإسمنت الذي وحّد هذه الزمرة المتداخلة هو العقيدة الرومية الأرثوذكسية التي يعتقدون بها، والثقافة الهيلينية التي يقبلونها ثقافة لهم.

لا بد من التوضيح أن الارتباط بالثقافة الهيلينية في الثقافة الإيطالية والأوروبية الغربية لا يصل إلى درجة التطرف. ولكن الأتراك يقدمون العثمانية التي رفعتهم على كل شيء. وبسبب رؤية كوستاكي موسوروس باشا سفيرنا في لندن حاول القوميون اليونانيون قتله عندما كان سفيراً في أثينا. في الحقيقة، إن سادة فنار سقطوا جزئياً بعد التمرد اليوناني بسبب عائلة إبسيلانتي التي اغتنت من التجارة والشحن البحري وانجرفت بالقومية المحلية، وبدأوا يتركون أمكنتهم للأرمن وعائلة فراشيري الألبانية ولبعض الموظفين الأتراك. وانضم إلى هذه القافلة بعض البيروقراطيين المسيحيين والمسلمين العرب في عهد عبد الحميد الثاني.

يدرس أبناء سادة الفنار في بادوا الإيطالية وفرنسا، ولكن الأهم هو تعلمهم التركية على أيدي أفضل مدرسي عصرهم. وهم يتصرفون ببرودة،

وحتى بعداء ضد القومية اليونانية المعاصرة بعد أن يفهموا عادات البيروقراطية العثمانية التعددية وأسلوبها. لسادة الفنار دور مهم جداً في ثقافة القرن التاسع عشر ودبلوماسيتها. ولهذا السبب، بعد أن ذابت الإمبراطورية، وغادرت غالبية هذه الأسر تركيا، ذهب أبناؤها وأحفادها إلى أوروبا وليس إلى اليونان. الأمر الأغرب هو أن أبناء فنار القاطنين في أوروبا لم ينسوا لغتهم التركية إلى جانب اليونانية.

آخر العثمانيين

قتْلُ فرانس فرديناند ولي عهد النمسا - المجر بتاريخ 28 تموز 1914 في سراي بوسنة دفع الكثير من الحكومات وعلى رأسها النمسا - المجر وبعدها روسيا وألمانيا إلى اتخاذ مواقف إما ضد صربيا أو معها؛ مما أدى إلى إعلان الحرب، ودخل العالم الحرب العالمية الأولى. دخلت الإمبراطورية العثمانية هذه الحرب بإعلانها الحرب ضد روسيا بتاريخ 29 تشرين أول 1914، ووقوفها إلى جانب دول المحور ألمانيا والنمسا - المجر ضد تحالف دولي واسع لدول كبرى.

وأحد أسباب هذا الخطأ والتهور الذي لا يقبله عقل هو رفض إنكلترا وفرنسا دخولنا الحرب إلى جانبهما على الرغم من رغبتنا بهذا. هذا صحيح. دخول العسكر والقادة الذين لم يُبلوا بلاء حسناً في حرب البلقان ميدان العمل السياسي عرّض الجيش التركي لهزائم غير محسوبة ولّدت انطباعاً خاطئاً لدى البعض بأن هذا الجيش «غير مؤهل للحروب الحديثة». لم يكن الضباط والجنود الألمان والنمساويون - المجريون يوافقون على هذا الانطباع في الأوساط العسكرية. ولكن الإنكليز فقدوا تواصلهم مع الأتراك وتجربتهم الحربية منذ زمن، محيين بذلك الانطباع السائد عنهم بأنهم أقوياء القرن التاسع عشر.

لا أحد يريد حليفاً يكون عثرة بين قدميه. من الواضح أن الأركان العامة التركية لم تكن راغبة بخوض هذه الحرب. أراد أنور باشا ومستشاروه الألمان دخول الحرب.

لم يكن القادةُ المعروفون مثل مصطفى كمال -الذي كان على رأس القادة الشباب - وحكمت بيك، وشكرو باشا، وأسعد باشا مؤيدين لدخول تحالف كهذا. ويجدر القول إن عصمت بيك قدم تقريراً، ونشره قبيل الحرب وشرح فيه الوضع بصراحة. فقد قال: «يمكن تفهم التحالف مع الألمان على جبهة تاننبرغ ضد الروس، ولكن تعثر الجيش الألماني على جبهة مارنة لا يُري أن هذا الجيش أكثر من عظيم كما كان مأمولاً. في هذه الحال، لا يمكن خوض الحرب مع هؤلاء».

استمرت الحرب سنوات طويلة على جبهات طويلة. لا يمكننا أن نطلق حكماً عاماً على تلك الحرب. لا بد من قول هذا: كان أنور باشا وجمال باشا أقل قادة الجيش التركي وضباطه تأهيلاً في الحرب العالمية الأولى. هناك قادة قدموا نماذج رائعة بالدفاع والهجوم. يعتبر بلال بيك مثلاً أحد أولئك

القادة بتوقيفه لواءً إنكليزياً كان على وشك الدخول إلى حيفا بمعركة آليات رائعة بوحدته التي لا تزيد عن مائة جندي لأنه يجيد الطبوغرافيا.

لم نكتب نحن تاريخ أولئك الضباط الأبطال المثقفين. يمكنكم أن تقرأوا عنهم في مقالات خبراء التاريخ العسكري الإسرائيلي. انتصرنا في المعركة التي خاضها خليل باشا في كوت العمارة (الكويت) ضد تاوسند. الفائدة العظيمة التي قدمها الأمير فؤاد في قضية إلهاء الجيش الإنكليزي الأكثر شباباً ونضارة والأكبر عدداً على جبهة السويس لمدة طويلة، وقوة الدفاع التي أظهرها مصطفى كمال من القادة الشباب في غليبلو (تشنق قلعة) أدّيا إلى غيرة أنور باشا منهما، فنقلهما. لم تكن الحرب العالمية الأولى عبارة عن هزيمة في (صارِ قمش). وكان إرسال جناح من الجيش إلى غاليتشة لدعم النمساويين الذين لديهم أسطول جيد ولكن قوتهم العسكرية ضعيفة قصر نظر سياسيًّا. ولكن الجيوش التركية أثبتت في نهاية الحرب العالمية الأولى أنها جيوشٌ حديثة خاضت الحرب جيداً، وأن الأمة التركية وصلت إلى وعي وطني.

خسرنا أناساً لا يحصون في أربعة أعوام، وفرغت المدارس، ولم تعد هناك قوة شابة تزرع وتمارس المهن في القرى والقصبات. مما اضطر تركيا لبذل الجهد على مدى ثلاثين عاماً لتعويض هذه الخسارة البشرية. استمرت حالة الانكماش حتى نهاية الحرب العالمية الثانية لتبدأ النهضة من جديد. كان عام 1920 عاماً بالغ الأهمية؛ لأن دول الحلفاء حاولت فرض معاهدة ظالمة على تركيا عام 1919. فوق هذا، لقد فعلت ما لا يمكن فعله.

لو تُرِكَت أراضي الإمبراطورية التركية لاحتلال الدول الكبرى المؤقت لما حدثت ردود فعل كتلك. ولكن ما نُوِيَ فعله ضد العثمانيين أكبر بكثير مما نُوِيَ فعله ضد المجر والنمسا وألمانيا. وقُدمت هدايا كبرى لرومانيا واليونان اللتين دخلتا الحرب إلى جانب الحلفاء في اللحظة الأخيرة.

أُعطيت للملكة الرومانية الأراضي الخصبة في ترانسيلفانيا المجر، ودوبرجة بلغاريا. وقد عُزم على مكافأة اليونان. ومثلما أحزن هذا الوضع حلفاءهم الطليان، جذب ردود فعل الأتراك الشديدة.

بدا الجيش التركي والبيروقراطية التركية أنهما أقرا الدستور العثماني أي القانون الأساسي والنظام العثماني عام 1920 من أجل إنقاذ مقام السلطنة والخلافة، ولكنهما بدأا خوض نضال من أنقرة مستفيدين من شبكات العلاقات الخارجية كلها، وأصبح قدرُ تركيا بيد أنقرة بعد عام 1920؛ وإن كان هذا قد تم مع صعوبات، وتحت الخطر أحياناً. وكما يتفق المؤرخون

جميعاً اليوم على هذا، فقد اعترف سياسيو أوروبا في ذلك اليوم بالحقيقة.

عقدت فرنسا اتفاقاً مع أنقرة بعد توتر العلاقة بينها وبين حليفتها إنكلترا. وكانت إيطاليا تتصرف باحترام مع أنقرة منذ البداية. وفي نهاية النضال القومي الذي استمر فترة طويلة، وبتاريخ 1 تشرين الثاني 1922 ألغت حكومة مجلس الأمة الكبير مقام السلطنة الذي تأخر بالاعتراف بنصر الجيوش في الأناضول، واحترامها.

وهكذا، فقدت الأسرة العثمانية المالكة سلطتها التي استمرت 622 عاماً. ولم يكن أمام آخر السلاطين العثمانيين (محمد السادس وحد الدين) سوى مغادرة إسطنبول بعد خمسة عشر يوماً في 18 تشرين الأول. لنقف قليلاً عند قضية المغادرة هذه. كان وحد الدين أحد الأمراء الذين لم يخضعوا لتنشئة جيدة نتيجة تعثر نظام الوراثة العثماني الواصل إلى درجة رفض الجميع له في القرن التاسع عشر. درس بعض الأمراء في غلاطة سراي، والكلية الحربية، أو خضعوا لتعليم عسكري في بروسيا أو النمسا كما حدث مع ابن آخر الخلفاء عمر فاروق أفندي، أو برهان الدين أفندي؛ ابن عبد الحميد الثاني، أو عثمان فؤاد أفندي. وهكذا عرفوا الحياة الأوروبية وسياستها ونظامها العسكري عن قرب، وتعلموا لغاتها. لعل وَضْع السلطان عبد الحميد الأمراءَ الأقرب إلى العرش تحت الرقابة الشديدة عثّر تنشئة أولئك الأمراء. لم يكن لديهم مستشارون يتعلمون منهم السياسة الخارجية، ولا أحد يتواصل معهم. ودعكم من تجولهم خارج البلد، ما كانوا يستطيعون التجول داخل البلد.

مع الأسف، إن آخر السلاطين وحد الدين يأتي على رأس الذين شعروا بأضرار هذا النظام التعليمي. فبسبب عدم معرفة وحد الدين بالسياسة الخارجية بدأ بحركة أفادت حركة الأناضول كأنه أهداها مصطفى كمال باشا، ولم يستطع إدراك تحوّل السلطة هناك، ولم يتقبلها، ووقف ضدها.

وقف علي كمال على رأس المحرضين ضد مقام السلطنة. وعلى الرغم من أنه كاتب مهم يحب البلد حسب رؤيته، ولكن أحاسيسه طغت على كل شيء. من جهة أخرى،كلّف السلطانُ الصهرَ فريد باشا؛ أتفه المنتسبين إلى العائلة المالكة، والمفتقر للنباهة إلى أبعد الحدود بالصدارة لعدة مرات وليس مرة واحدة. في الواقع، إن فترات صدارة الصهر فريد والحكومات التي شكلها ليست لها أهمية. ولكن، لا نهاية للأضرار التي تسبب بها. لهذا السبب سقط مقام السلطنة بنظر أنقرة، ونظر شرائح معينة من الأمة.

وصل هذا التأثر إلى درجة إلغاء مجلس الأمة الكبير السلطنة. علينا

أن نتوقف عند تصرف آخر سلطان سلاطين لجأ إلى أوروبا مغادراً إسطنبول بعد إلغاء السلطنة.

لم ينهب هذا السلطان الخزينة العثمانية على الرغم من استطاعته القيام بذلك، وبعد أربع سنوات مات في منفاه معانياً من الفقر والفاقة وغارقاً بالديون. فوق هذا، كان يستدين من أجل أن يعيش فقط. لم يصطحب معه يوم غادر العرش سوى طبيبه رشاد باشا وابنه وزوجته، حتى إنه ترك بناته وأحفاده، ولجأوا إلى أوروبا بعد مدة، عندما نفي أعضاء الأسرة المالكة كلهم.

بعد إلغاء السلطنة، اختار الخليفةَ مجلسٌ باسم الأمة، ولعل تلك المرة كانت الأولى في تاريخ الإسلام على مدى ثلاثة عشر قرناً. وبعد فترة قصيرة بلغت سنة ونصف السنة عُزل الخليفة من هذا المقام.

كان عبد المجيد أفندي حتى ذلك التاريخ ولياً للعهد في السلطنة. عبّر عن تأييده لحركة الأناضول، ولكنه لم يعرف معنى منصب الخلافة بعد أن جلس على عرشه. لأن الخليفة يجب أن يعني الشخص الذي يمسك بالإدارة والسلطة كآمر باسم المؤمنين. كيف سيكون خليفة في إسطنبول إذا كانت الإدارة والسلطة بكل جوانبها بيد أنقرة؟ ويجب أن تكون لدى الشخص معلومات تاريخية وسياسية، وحدس وموهبة عالية جداً بالمناورة ليفهم هذا.

كان الخليفة عبد المجيد أميراً مثقفاً يرسم لوحات؛ مستوى بعضها راقٍ، ولكن الأهم أنه ملحن قوي. أسس عبد المجيد علاقة إيجابية مع حكومة الأناضول خلال فترة الهدنة وحرب الاستقلال، ولكنه مع هذا لم يكن يفهم بالسياسة كما قال بعض أعضاء الأسرة المالكة. وبدلاً من إقامة علاقات متوازنة مع أنقرة، أعدّ مراسم استقبال مبهرج، ومن المعروف أنه ارتدى لباس السلطان محمد الفاتح في تلك المراسم. مع الأسف، لم يبن إدارة متوازنة في شؤون البروتوكول والميزانية، ودخل علاقات متوترة مع أنقرة. من المحتمل أن هذا النوع من التصرفات سرّع نهاية الأسرة المالكة. لم يكن يستوعب نضال الجمهورية التركية الجديدة من أجل السلطة. أساساً، لم تكن مؤسسة الخلافة قابلة للانسجام من الناحية الحقوقية مع بقائها خارج السلطة. لأن الخلافة لم تكن موقعاً روحياً، بل كان يجب أن تمتلك سلطة دنيوية، ولم يكن ثمة مفر من هذا الأمر.



أمام قصر ضولمة بهتشة

بتاريخ 3 آذار 1924، وفي مكتبة قصر ضولمة بهتشة أبلغ محافظ إسطنبول وهيئة تمثيلية قادمة من أنقرة عبد المجيد أفندي آخر الخلفاء، والذي لم يبق لديه سوى لقب خليفة بعزله عن منصبه بموجب قرار مجلس الأمة، وبضرورة مغادرته البلد حسب القانون. لم تكن ثمة فائدة من اعتراض الخليفة، وإصراره على البقاء. وخلال عدة ساعات، أُرسل إلى تشاطلجة مع بعض مساعديه المقربين لكي لا تُعد له مراسم في سيركجي،

وغادر الوطن بقاطرة أُلحقت بالقطار. وخلال أسبوع، نفي بالطريقة نفسها أعضاء الأسرة المالكة العثمانية؛ أي الأمراء والأميرات (الشيخ زادة والسلطانات).

أعضاء الأسرة المالكة في التقاليد العثمانية هم سلطان السلاطين وأبناؤه وبناته. ويسمى هؤلاء باللغات الأوروبية أمراء (Prince) وأميرات (Princess). ولا يُعد الأصهار أو الكنات، وبناتهم الأميرات المسميات سلطان خانم، وأبناؤهم الملقبون بيه زادة من أعضاء الأسرة المالكة، ولكنهم منتمون إليها. لهذا السبب، لم تكن ثمة ضرورة لذهاب من في هذا الوضع من أفراد، والتحق غالبية هؤلاء بآبائهم وأمهاتهم لأنهم صغار وغير قادرين على البقاء وحدهم، والتحق الآخرون والأخريات بزوجاتهم وأزواجهم. أعطت الحكومة كلّ شخص من المنفيين حق حمل ألف جنيه إسترليني، وجواز سفر للذهاب فقط، وكمية معقولة من المجوهرات. ولم تُصادر أملاك أعضاء الأسرة الحاكمة إلا في بعض الحالات الاستثنائية. ولكن عبث أقربائهم الباقين في البلد بالأملاك - وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأملاك لم تكن تساوي ما تساويه اليوم - يمكّننا من تصور الصعوبات المالية التي عانى منها المنفيون.

لا يمكن الحديث هنا أصلاً عن أسرة مالكة غنية جداً. وكما بيّنت في مواقف سابقة، لم يكن سلطان السلاطين يستطيع أن يمد يده إلى قطعة زمرد، ولم تكن لدى الآخرين إمكانية إخراج أكثر مما جاء في القانون والقرار، ولهذا عاشت الأسرة المالكة العثمانية حياة أكثر الأسر المالكة المنهارة والمنفية التي فقدت عرشها وتاجها فقراً، وأتعسها.

عاش أعضاء الأسرة المالكة العثمانية أياماً صعبة خارج البلد، وكانوا مفلسين. كانت الأسرة الحاكمة العثمانية هي الوحيدة التي لم تودع أموالاً في بنوك أوروبا. على الرغم من هذا، لم تُقدم على عمل غير كريم من أجل أن تعيش. الأهم أنها لم تُؤسس حزباً يعمل ضد الأمة التركية ودولتها، ولم تطرق أي عملٍ سياسي استفزازي. ينبغي أن نقدّر وطنيتها وحبها لدولتها مقارنة بالأسر المالكة التي فقدت عرشها بعد الحرب العالمية الأولى. تلقى أعضاء الأسرة المالكة الشباب تعليمهم في أوروبا على الرغم من شح إمكانياتهم. ومنهم من حظي بمكانة رفيعة، كما حظي بإعجاب النخب الأوروبية والأمريكية. لم يتخلوا عن مبدأ رئيس العائلة عثمان أرطغرل أفندي: «ما لم يكن خيراً على عائلتنا، كان خيراً على تركيا».

لنتوقف عند هذا: الأسرة المالكة العثمانية ليست مثل أسرة الخديوي في مصر، ولا تشبه بشكل خاص النموذجين الأكثر سوءاً في عائلة الخديوي؛

الملكين فؤاد وفاروق. ولم تكن الأسرة العثمانية أيضاً مثل عائلة بهلوي الانقلابية في إيران. بل كانت تثق بتقاليد تجعلها ترفع الدولة فوق كل اعتبار. أعاد آخر السلاطين ساعة والده التي استعارها من الخزينة قبل فترة من مغادرته. لم يعتقد أفراد الأسرة المالكة العثمانيون أنهم سيرتاحون بنهب الخزينة أو إيداع أموال في البنوك الأوروبية، وتبنوا فكرة أن الإساءة لمن يديروا الدولة التركية ومعارضتهم تسيئان لديمومة الأمة والدولة. وينبغي احترام هذا التصرف.

ليس ثمة تيار أو حركة ملكية جدية في تركيا. ولم يحدث هذا. والسبب هو أن انتصارات أمة عسكرية ذات روح مقاتلة تعرف كيف تنظم نفسها إزاء المخاطر والحروب لا شك أنها ليست إنجاز بضعة ماريشالات.

وكان ثمة عسكريون جيدون غير متوقعين ظهروا من نسل ماريشال القرن السابع عشر الداهية مراد الرابع ممن تربوا في القصر بعد إلغاء عادة إرسال الأمراء إلى الألوية كما كان الوضع في عهدي الماريشال السلطان محمد الفاتح، والسلطان سليمان القانوني. لم يكن أولئك الماريشالات يحققون النصر وحدهم. من كان ينجز هذا مع مصطفى كمال بيك - أي أتاتورك - ماريشال القرن العشرين الكبير وأركانه من حوله؟ عددٌ كبير من العسكريين يصل إلى الأنفار. التشارك في شريحة اجتماعية كهذه، مثلما هو بالمكانة والشرف، هو أيضاً بتحمل المسؤولية.

بناءً على هذا، إنّ وجود الدولة التركية الحية، وهويتها يتقدمان على كل شيء. لهذا السبب، رسخ النظام الجمهوري دون نقاش. مثلما لم يُعرف معنى الجمهورية لدينا، ولم يُعرف جيداً أن هناك نقطة ضعف كبيرة لدى السلطنة العثمانية، وهي النظام الوراثي.

لم يُحدد من يجلس على العرش وفق أسس سليمة وواضحة كما في فرنسا أو لدى آل هابسبورغ في النمسا وألمانيا. يلاحظ أن السلاطين لم ينشأوا تنشئة جيدة؛ خصوصاً بعد القرن السابع عشر نتيجة الصراع على العرش وتعديل نظام التوريث، وعدم بنائه على أسسٍ سليمة. من الواضح تماماً أن آخر حاكمين لم يحضّرا جيداً، وهما حاكمان تركا الأمور لسيرورتها وقدرها. وهذا ما أوقعهما وسط فشل وكوارث.

لم تكن المدينة تُقصف يوم جلوس آخر الحكام على العرش. لم تقصف بسبب تقليد الحاكم السيف، أي بكلمات أخرى مراسم تتويجه، لهذا السبب لم يقصف الإنكليز المدينة لأنهم بكل الأحوال يحترمون عضو أسرة ملكية كبرى. هناك قواعد لا بد من مراعاتها بين الدول الكبرى حتى لو

كانت في حالة حرب. الحاكم الذي يجلس على العرش لم تكن له خلال فترة الهدنة أي سلطة خارج القسم الممتد بين جسر أون قبانِ ومنطقة ببك. تظهر قوات الاحتلال الإنكليزي أنها أخلت الميدان للدرك والشرطة التركية، ولكن سلطان السلاطين اضطر للانزواء في قصر يلضظ لأن قصر ضوملة بهتشة كان محاصراً بالمدرعات والمدفعية. على الرغم من هذا الوضع الصعب، عمل الجيش والإدارة العامة، واستطاعا التواصل. كان ثمة عباقرة تمكنوا من القيام بهذا العمل.

من الجلي أن هذه الحركة تسارعت إثر احتلال إزمير بتاريخ 15 أيار 1919، وتعاظم تنظيمها، ومجيء داهية القرن العشرين مصطفى كمال باشا على رأس هذه الحركة، وانتقالها إلى الأناضول. بدأت حركة الأناضول تدير تركيا اعتباراً من هذا التاريخ. بعد اتفاقية أنقرة، صارت هناك سفارتان في باريس؛ إحداهما لإسطنبول والثانية لأنقرة. وعندما كان السيد فريد يقيم دعوة في سفارة أنقرة لدى باريس، كان يستعير الشوكات والسكاكين من سفير إسطنبول السيد مختار.

سقطت مكانة السلطنة. بعين من سقطت؟ سقطت بأعين النخبة التي تدير المجتمع، وكانت تلك النخبة قوية جداً، ولم تتخذ هذا الموقف لأنها على رأس تلك الحركة، بل لأن لديها دهاء. ونستشهد بقول السياسي البريطاني رئيس حكومة إنكلترا لويد جورج بكلمته أمام البرلمان: «ماذا نفعل إذا كان الداهية الذي يظهر مرة كل قرن قد ظهر في آسيا الوسطى؟». واعتماداً على هذا الاستشهاد، من الجلي أن ثمة قوة لا يمكنها أن تعترض. إنها السلطنة. لم يكن هناك بُدّ من إلغاء السلطنة، وحدث هذا فوراً وبشكل سلس، ولكننا لا نستطيع قول الأمر نفسه عن الخلافة. فقد اضطرت الجمهورية الجديدة على الأغلب لبذل الجهود إزاء التدخلات الداخلية والخارجية والاعتراضات.

هل يمكن ترميم الخلافة في هذا العصر؟ هذا غير ممكن دون شك. من غير الممكن بعث هذه المؤسسة في عالم تنشأ فيه الكثير من الدول القومية، ووصلت فيه الادعاءات والصراعات المذهبية إلى الذروة. كل جهة خليفة نفسها بمعنى من المعاني. ليس ثمة حكمٌ صريح بطريقة انتقال الخلافة ولمن تنتقل. الخلافة تتطلب سلطة، وسلطة العثمانيين التي هيمنت على أغلب العالم أصبحت تاريخاً. ولم يبق من الخلافة سوى اسمها، ولم تعد الخلافة العثمانية في القرن التاسع عشر تستطيع إعادة بناء مؤسسة الخلافة، ولا العالم يمكن أن يقبل بها على ما هي عليه. لم يعد من

الممكن الحديث عن الخلافة بعد أن انتهت الخلافة العثمانية، وانكمشت إلى حدودها.

كلمة الناشر

التاريخ الذي يُدرس في المدارس تاريخ غائي (teleology)، يكتب من أجل خدمة هدف معين. الكاتب إلبر أورطايلي من أشد المنتقدين لكتابة التاريخ بهذه الطريقة، والمدافعين عن كتابة التاريخ بأسلوب علمي. ويطرح رؤيته هذه من خلال تناول بعض الزوايا من التاريخ العثماني غالباً ما يتم تجاهلها، أو اختزالها، أو تحريفها... ويحاول إثبات هذا من خلال الوثائق المتاحة.

ولكن التاريخ عموماً رؤية، وتعتمد هذه الرؤية دائماً على وثائق، ويمكن التوصل إلى الكثير من الرؤى اعتماداً على الوثائق نفسها. إلى أي مدى تمكن الكاتب من الالتزام بالعلمية التاريخية التي يدعي أنه يعمل وفقها؟ لا أحد يستطيع الادعاء بأنه قدم عملاً متكاملاً، فهذا موضوع نقاش. والكاتب يتبنى فكرة هذا النقاش.

انتهى

---

[1] أبقيتُ على لفظ هاتين المفردتين العثمانيتين لعدم وجود ترجمة دقيقة لهما إلى العربية الفصحى. وتُستخدم مقابلهما في البادية السورية مفردة «مئكال»، وهي تحريف لكلمة مأكول المشتقة من فعل أكل وتعني ما يأكله والد الفتاة لقاء تزويجها لشاب. يعتمد كثير من المترجمين ترجمتهما إلى كلمة مهر العربية، ولكنها كما أراد الباحث غير المهر المعروف في المحاكم الشرعية، والعرف الشرعي الذي يعتبره من حق الفتاة نفسها. ما زال المئكال شائعاً في المجتمع الريفي في شرق تركيا وجنوب شرقها، ويسبب مشاكل اجتماعية عميقة. المترجم

[2] في 27 أيار 1960 حدث انقلاب عسكري نفذته مجموعة من الضباط الصغار على حكم الحزب الديمقراطي؛ وكان أول حزب يصل إلى الحكم بانتخابات ديمقراطية بعد إعلان الجمهورية، وقاد الحكم في تركيا بعد هذا الانقلاب الجنرال المتقاعد «جمال غورسل». ومما جاء في بيان الانقلاب: «لقد أوصل الحزب الديمقراطي البلد إلى انقسام جعل الأخ يقتل أخاه»... المترجم